نبيل المحيش

عاصفة على الشرق

رواية

٢٠١٦ م



إهداء

إلى المخدوعين بأوهام الغرب في دعوته إلى السلام ..

إن هذه الحروب في منطقة الشرق الأوسط لن تتوقف حتى تحصد الملايين من الضحايا من كل المذاهب والطوائف سُنَّةً وشِيعةً .. عَرَباً وأكراداً وحتى يتم تدمير مدن الشرق ، وحتى يذهب آخر دولار من أموال الخليج وإيران إلى مصانع الأسلحة في أمريكا وروسيا والدول الغربية .

وإن تغذية الأحقاد التاريخية لدى الأجيال المعاصرة سوف تُشعل الحروب الطائفية عشرات السنين ، في بلاد العرب ، ولذلك فإن التسامح ونبذ التعصب وتعزيز القيم الإنسانية هو الطريق إلى الأمن والسلام .

المؤلف

طهران ـ إيران

يظهر الرئيس الإيراني على شاشة التلفزيون ويعلن للعالم :

« إيران فجَّرت قنبلتها النووية الأولى .. إيران أصبحت قوة نووية .. إيران تمتلك عدداً من القنابل النووية .. على أمريكا وإسرائيل والدول الغربية أن تتعامل مع إيران على هذا الأساس » .

يوجه خطابَ تطمين إلى السعودية ودول الخليج العربي : « السلام النووي الإيراني ليس موجَّهاً لأشقائنا الخليجيين .. نحن نرتبط معكم بعلاقة أخوة إسلامية » .

مظاهر الفرح والابتهاج تعم المدن الإيرانية .. ابتهاجاً بهذا الإنجاز وتحمل اللافتات المكتوب عليها عبارات التحدي لأمريكا وإسرائيل ..

وقفت الفتاة الإيرانية زهراء تتابع محطات التلفزة الإيرانية التي تنقل صور المظاهرات وسألت زوجها علياً :

ـ هل سيحمينا السلاح النووي ويُنهي مشكلاتنا مع أمريكا وإسرائيل ؟

ـ نعم فأمريكا وإسرائيل لا تعرفان إلا منطق القوة .

ـ وهل سيعيش أبنائي في سلام ؟

قالت ذلك وهي تلقي نظرة حانية على أبنائها النائمين .

ـ القوة وإعداد الجيوش القوية هي الطريق إلى السلام .

ـ وهل نفعت صدام حسين جيوشه حين هاجمته أمريكا ، قالت ذلك ودسَّت نفسها لتنام بين أطفالها .

جلس عليٌّ يقلب في محطات التلفزة التي كانت تذيع الخبر وتستضيف المعلقين الذين كانوا يحلّلُون هذه الخطوة وردود الفعل الدولية عليها .. كان معظم المحلّلِين ضد هذه الخطوة التي ستُصَعِّد الصراع بين إيران والغرب ، وهناك قلة من المحللين أيَّدت إيران وقارنت بين إيران وإسرائيل لماذا يُسمح لإسرائيل بامتلاك ترسانة نووية ولا يُسمح لإيران بذلك ؟ ،

جلس عليٌّ يُقلِّبُ في القنوات منتظراً خطاب الرئيس الأمريكي الذي أُعلن عنه منذ ساعة وتترقبه كل القنوات الفضائية والسياسيُّون في أنحاء العالم.

تناول الريموت وأغلق التلفزيون ولبس ملابسه وحمل معه علم إيران وخرج إلى شارع ولي عصر ليشارك في الاحتفالات الكبيرة .. كانت أمواج البشر تملأ المكان .. تذكر فوراً مشاركته حين كان شاباً في الثامنة عشرة من عمره في احتفالات انتصار الثورة سنة ١٩٧٩ م بقيادة آية الله الخميني وسقوط نظام الشاه محمد رضا بهلوي ...

التقي علي في الميدان الرئيس أصدقاءه القدامى ، وعادت بهم الذكريات إلى أيام الثورة وكيف كانوا يتصدون لقسوة جهاز الأمن القوي « السافاك » ، تذكروا صديقهم حسين الذي مات تحت التعذيب ، ثم انشغل الجميع بالحديث عما يمكن أن تؤول إليه المنطقة من تطورات بعد إعلان إيران امتلاكها السلاح النووي ، كان حسين من أكثر المتحمسين لهذا الإعلان ، وهو عضو في الحرس الثوري ، وعبر عن تفاؤله قائلاً : الغرب سوف يحترم إيران ، وإسرائيل ستخاف منا ؛ لأننا وصلنا إلى مرحلة توازن الرعب النووي معها .. أمريكا والغرب لا يحترمون إلا القوي ، ولكن صديقه محمد أكبر قاطعه قائلاً :

ـ ولكني لا أظن أن أمريكا وإسرائيل والغرب سوف يتقبلون هذا الأمر .. إنني أخاف من ردة فعلهم المدمرة علينا ..

ـ إنهم لم يجرؤوا على مهاجمتنا ونحن بدون سلاح نووي خوفاً من قوتنا الضارية ، فكيف يجرؤون الآن على مهاجمتنا ونحن نمتلك السلاح النووي ؟!

ـ لا ينبغي علينا أن نستهين بهم .. هذا الأمر سوف يدخلنا في متاهات جديدة من الحروب والحصار مع الغرب .. بينما نحن بحاجة إلى تحسين اقتصادنا السيئ ..

كان محمد من الإصلاحيين المعارضين لهيمنة رجال الدين على السلطة ، والذي يؤمنون بالديمقراطية وبالحرية ، ويعارضون سياسات الحرس الثوري الإيراني ومشاركته في الحروب خارج إيران ..

ـ أعرفك جيداً أنت من المخربين الذين يدعون الإصلاح ويتآمرون على الثورة الإسلامية .

ـ نحن نريد الخير لبلدنا ، نريد أن يتحسن اقتصادنا ، نريد الوظائف لأبنائنا وبناتنا ، لا نريد هذه الحروب العبثية التي يشنها الحرس الثوري في كل مكان وإشعال الحروب الطائفية في المنطقة ، لا تنسَ أننا فقدنا مئات الآلاف من شبابنا في هذه الحروب العبثية في العراق وفي سوريا ..

ـ لا تنسَ أنه بفضل الحرس الثوري سيطر إخواننا في العراق على الحكم ، وأنه بفضلهم ما زال حليفنا بشار الأسد يحكم سوريا ..

ـ هذه هي خطة أمريكا التي غزت العراق وأسقطت صدام حسين وسلمت حكم العراق للشيعة حتى تثار الحروب السنية الشيعية في المنطقة ، والتي سوف تبقى عشرات السنين كما يخططون لها ، إن أمريكا وروسيا والغرب يستخدمون الشيعة ورقة رابحة في صراعهم العالمي على نفط الخليج ..

ـ أمريكا لها حساباتها ونحن لنا حساباتنا ، ونحن اليوم لنا الكلمة الأقوى في المنطقة على الأرض ، وقد استطعنا أن نؤسس في العراق الحشد الشعبي ، وهو الموازي والمماثل للحرس الثوري في إيران .

ـ إن من الوهم الكبير أن نتصور أن أمريكا وإسرائيل ستسمحان لإيران بالسيطرة الكاملة على نفط الخليج .

ـ هكذا أنتم يا من تدعون الإصلاح .. جبناء والثورة ليست بحاجة إلا إلى الشجعان .. أفكاركم هذه هي أفكار أعداء الثورة الإسلامية ..

ـ ولماذا لا تقبلون وتناقشون الرأي الآخر ؟ أنتم تمارسون الإقصاء والتسلط ، وتحاربون كل من يدعو إلى رأي مخالف لرأيكم ، وتتهمونهم بكل أنواع التهم ، لقد تحولت إيران على يدكم إلى دولة الخوف ، لا فرق بينكم وبين نظام الشاه ، نحن مثلكم نحب بلدنا ونخاف عليه ونسعى لبناء وطن يتحقق فيه العدل والحرية والمساواة والديمقراطية بعيداً عن هيمنة رجال الدين وتسلطهم على حياة الشعب ..

ـ ما ذكرته موجود ومتحقق ، عندنا انتخابات ديمقراطية والشعب حر في انتخاب من يريد .

ـ هذا غير صحيح والعالم كله يعرف أن هذه الانتخابات تسبقها عملية تصفية ويتم استبعاد المرشحين الذي لا يرضى عنهم المرشد الأعلى للثورة والحرس الثوري .

انتهى الحوار وبدأ الجميع يستمعون إلى الخطب الحماسية من رجال الدين وشخصيات مختلفة ، وكانت كلها تحمل طابع التحدي لأمريكا والغرب وإسرائيل ..

البيت الأبيض

واشنطن ـ الولايات المتحدة

بعد ساعات من الانتظار والترقب ظهر الرئيس الأمريكي أمام عدسات القنوات الفضائية العالمية ليُلقي خطابه المنتظر .. بدأ خطابه بالعبارة المشهورة التي قالها الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت الذي قاد أمريكا إلى النصر في الحرب العالمية الثانية : « الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف نفسه » ، وقال إن إيران قامت بخداع المجتمع الدولي طوال السنوات الماضية حين ادَّعت أن برنامجها النووي يخلو من النية في إنتاج سلاح نووي ، وقال إن إيران دولة راعية للإرهاب ولمنظمات إرهابية مثل : حزب الله وحماس ، وأن امتلاكها سلاحاً نووياً يمثل خطراً كبيراً على الأمن والسلام العالمي ، ودعا دول العالم والأمم المتحدة إلى الوقوف في وجه هذا الخطر ، وأعلن إصدار أوامره إلى قطع الجيش الأمريكي بالتحرك إلى الخليج ، وقال إنه إذا أعلن قرار الحرب فلن يطلب موافقة من الأمم المتحدة لأنه يرى أن إيران أصبحت تمثل تهديداً مباشراً للأمن القومي الأمريكي والأمن القومي لحلفائنا في المنطقة والعالم ..

وحين انتهى الرئيس من خطابه توجه مباشرة لرئاسة اجتماع عاجل لمجلس الأمن القومي الأمريكي لدراسة القرارات التي ستتخذها الإدارة الأمريكية رداً على التفجير النووي لإيران .

استمع المجتمعون إلى عرض مركَّز عن الوضع العسكري في المنطقة وقطع الأسطول الأمريكي وقوات الحلفاء ، وفي المقابل الوضع العسكري للجيش الإيراني والحرس الثوري ، ودارت نقاشات واسعة حول خيار الرد الأمريكي ، تحدَّث رئيس الأركان قائلاً :

حسناً لدينا ثلاثة آراء لنصوّت على أحدها : الرأي الأول : إمكانية تغيير النظام في إيران بدون إعلان أمريكا الحرب وذلك عن طريق تقديم دعم كبير للمعارضة الإيرانية في الداخل وتقديم الأسلحة والأموال إلى

الأقليات الكردية في كردستان إيران وعرب الأهواز والسنة في بلوشستان عن طريق الحدود مع تركيا وباكستان وأفغانستان ، ومن عيوب هذا الأمر هو أن النتيجة المطلوبة ليست مضمونة وتحتاج إلى وقت غير قصير وقد تثير إيران حروباً إقليمية مع جيرانها .

الرأي الثاني : قيام الجيش الأمريكي بتوجيه ضربات عسكرية بمشاركة مع إسرائيل وحِلْف الناتو من أجل شلّ القدرات العسكرية الإيرانية وإغراق قطع الأسطول الإيراني وتدمير المواقع النووية الإيرانية مع تواصل الضربات حتى استسلام النظام الإيراني .

ومن مخاطر هذا التوجه الخسائر الكبيرة التي يمكن أن تتعرض لها قواتنا وخاصة من جانب شبكة صواريخ الدفاع الجوي الضخمة المنتشرة فوق الأراضي الإيرانية والتدمير الذي ستحدثه الصواريخ الإيرانية ضد قطع الأسطول الأمريكي وعلى المدن الإسرائيلية ، إضافة إلى الاحتمال الوارد لتدخل أصدقاء إيران في العراق وسوريا ولبنان واليمن لتحويل الحرب على إيران إلى حرب إقليمية .

ثم واصل الجنرال حديثه متحدثا عن الرأي الثالث : وهو تنفيذ الخطة HN2 وهو اختصار (هيروشيما ـ ناجازاكي ـ النسخة الثانية) ، وفيه إشارة يا سادة إلى ما قمنا به لإنهاء الحرب العالمية الثانية فقمنا بقصف المدينتين اليابانيتين بقنبلتين نوويتين ، وتقضي خطتنا بقصف مدينتين إيرانيتين برأسين نوويين ، وبالطبع لن تكون طهران واحدة منهما ، إن خطتنا تقوم على توجيه إنذار بهجوم شامل على إيران ، وفي حالة لم يستجب النظام الإيراني لشروطنا أو قاموا باستخدام أسلحة نووية أو كيماوية أو جرثومية، فإننا سنقوم بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة والتي سيتم فيها قصف ثلاث مدن إيرانية برؤوس نووية ، وقد حددنا المدن التالية : (طهران ـ قم ـ مشهد) .

ـ هذا جنون ، هل ستقومون بقتل ملايين البشر الأبرياء ؟

هكذا علَّق نائب الرئيس الأمريكي .

ـ هم الذين سيجيبون على هذا السؤال ، أقصد القادة الإيرانيين ، لن نسمح لهم بتهديد الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكي ولإسرائيل ، هكذا رد الرئيس الأمريكي على نائبه .

في ختام الاجتماع صوَّت الأعضاء على أحد الخيارات الثلاثة ، وطلب عقد جلسة طارئة لمجلس النواب والكونجرس لأخذ الموافقة ، وفي نفس الوقت وقَّع الرئيس الأمريكي أمراً عاجلاً بطلب وكالة المخابرات الأمريكية (CIA) إرسال مجموعة من عملائها إلى إيران برئاسة الرائد وليام كنيدي .

ينهي الرئيس الاجتماع ويتوجه إلى مكتبه للرد على مكالمة هاتفية من الرئيس الروسي ، ويتم الاتفاق بينهما على التنديد بالتفجير النووي الإيراني ، وقد أبدى الرئيس الروسي معارضته لأي خطوة لبدء الحرب ضد إيران من جانب أمريكا وحلفائها ، وقد أكَّد له الرئيس الأمريكي أن أمريكا لن تبدأ الحرب من جانبها وسوف تكون حريصة على الأمن والسلم في منطقة الشرق الأوسط ، لكنها لن تسمح أبدا لإيران بالهيمنة على الخليج العربي الذي يضم أكثر من ٧٠ ٪ من احتياطي النفط العالمي .. ولن تسمح لها بتهديد أمن إسرائيل ...

تلقى الرائد وليام كيندي اتصالاً من رؤسائه ، وتم إبلاغه بالمهمة التي كلف بها ، وأمروه بالاستعداد للسفر عاجلاً إلى الخليج العربي .. عمل وليام في العراق لمدة سنتين بعد الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣ م ، وشارك في عدد من العمليات التي أكسبته خبرة ومهارة ، وأسهمت في معرفته بالأوضاع السياسية والجغرافية والدينية في المنطقة ، كان وقتها ضابطاً صغيراً لكنه يمتلئ بالحماس والثقة والشجاعة .

وقف وليام يقرأ تفاصيل المهمة الجديدة التي أوكلت إليه ، وأخذ يدوّن ملحوظاته وأسئلته ليناقشها مع رؤسائه قبل سفره ، وتمت الموافقة على فريق العمل الذي سيساعده في مهمته ، وكان من ضمنه مساعدته شيرين بهلوي التي استدعاها إلى اجتماع مغلق ، وهي أمريكية من أصل إيراني ، وقد اختيرت لهذه المهمة لمعرفتها بالأراضي الإيرانية واللغة الفارسية ولها صلة قرابة بأسرة شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي ، ولها صداقات كثيرة في إيران :

ـ شيرين .. عندي لك مفاجأة جديدة ..

ـ ماذا ؟ هل هي مغامرة جديدة في القطب الجنوبي ؟!

ـ كلا .. مغامرة ولكن في الشرق الأوسط من جديد ..

تعرف وليام على شيرين أثناء عملهما في العراق ، ولكنها بقيت هناك فقط سنة واحدة ، ثم عادت إلى أمريكا .. أخبرها وليام بتفاصيل المهمة الجديدة ، وأخذا يتناقشان في التفاصيل ..

ألقت شيرين نظرة على ورقة كان وليام يكتب عليها ويرسم رسومات مبهمة ولكنها لم تفلح وهنا قالت له :

ـ ما هذه الخربشات التي لم أفهمها ، إنها تشبه اللوحات السوريالية التي يرسمها بيكاسو ؟

ضحك وليام بصوت عالٍ .. اسمعي يا شيري سأقول لك قصة تذكرتها الآن حين تحدثت عن بيكاسو وعن خربشاتي في الورقة .. انتقد أحدهم بيكاسو قائلاً : يبدو أنك لا تحسن من الرسم سوى رسم هذه الخطوط والألوان المتداخلة ، وهي مجرد خربشات غير مفهومة ، فأخذ بيكاسو ريشته ورسم حبة قمح على الأرض ، وكانت تشبه تماماً حبة القمح الحقيقية إلى درجة أن أحد الديكة تقدم محاولاً التقاطها ، وعندها انبهر

الرجل وقال لبيكاسو : لماذا إذن تصر على هذه الرسوم الغريبة وأنت تحسن الرسم بهذه الطريقة الرائعة ؟! فأجابه بيكاسو يهدوء : في الحقيقة أنا لا أرسم للدجاج .

ضحكت شيرين من القصة وقالت :

ـ هل تقصد أنني دجاجة يا وليام ؟

ابتسم وليام ورد عليها :

ـ كلا أنت لست دجاجة ، كما أنني لست بيكاسو ..

جلس وليام وشيرين على طاولة اجتماعات صغيرة وأخذا يقرآن تفاصيل المهمة التي سيتوليان تنفيذها قريباً ..

الرياض ـ السعودية

طريق الملك فهد الذي يمتد من جنوب الرياض إلى شمالها أصبح في السنوات الأخيرة المكان المفضل لبناء الأبراج على جانبيه ، سابقاً لم يكن فيه إلا برج المملكة وبرج الفيصلية .. في أحد مقاهي حي العليا الراقي في الرياض جلس مجموعة من الشباب السعوديين يتناقشون حول الأحداث السياسية في الخليج ، فهد أحد الشباب المتخرجين حديثاً من جامعة الملك سعود ويعمل معلماً للعلوم في مدرسة ثانوية كان أكثر الشباب تحمساً للحديث مصرّحاً برأيه قائلاً :

- السعودية ودول الخليج العربية تواجه أخطاراً كبيرة ولذلك لا بد من قيام الحكومة بفرض التجنيد الإجباري على كل القادرين للدفاع عن بلادنا ..
- نحن لم نصل إلى هذه المرحلة وجيشنا وحرسنا الوطني وقوات أمننا قادرون على مواجهة الأعداء ، هكذا قال محمد ويعمل ضابطاً في وزارة الداخلية .
- نحن نثق فيهم ولكن لا بد من قيام الشعب بدعمهم خاصة في وقت الأزمات في مجال الدفاع المدني والإسعاف ، ولذلك من الضروري السماح للمرأة بقيادة السيارة .. قيادة المرأة للسيارة ضرورة أمنية والحاجة ماسَّة لها في وقت الأزمات ، هكذا علَّق خالد وهو أحد الشباب المنفتحين ويدرس في الجامعة .

وسكت الجميع وهم يستمعون إلى الأخبار التي تحدثت عن دعوة السعودية إلى اجتماع عاجل لدول الخليج ودعت إليه قادة مصر والأردن وتركيا . أسست دول الخليج مجلس التعاون الخليجي سنة ١٩٨١ م بعد عام على بدء الحرب العراقية الإيرانية التي وقفت فيها إلى جانب العراق وسخَّرت إمكاناتها المادية لدعمه خلال تلك الحرب التي استمرت ثماني سنوات من

١٩٨٠ م ــ ١٩٨٨ م ، وبعد انتهاء الحرب فوجئت دول الخليج بكارثة احتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠ م ، وشاركت في التحالف العسكري الذي تزعمته الولايات المتحدة الأمريكية لحرب تحرير الكويت سنة ١٩٩١ م .

وبعد إسقاط نظام صدام بعد الحرب الأمريكية على العراق سنة ٢٠٠٣ م وجدت دول الخليج نفسها أمام نظام عراقي جديد محالف لإيران .

في الاجتماع تحدث أحد القادة قائلاً :

ــ إيران أظهرت حسن نواياها ولم تظهر لكم عدوانية ، ولا داعي لاستفزازها والسلاح النووي حق لها ..

فرد عليه آخر :

ــ ولكن إيران أرسلت الأسلحة والصواريخ إلى بشَّار في سوريا وإلى العراق لقتل السُّنَّة فيهما .. وهرَّبت الأسلحة إلى الحوثيين في اليمن وإلى حزب الله في لبنان ..

ولفت أحد القادة الأنظار بقوله :

ـــ احذروا .. أمريكا تريد أن تورطكم في حرب مع إيران .. حرب سُنّيَّة شيعية تأكل الأخضر واليابس ..

أمريكا لا يهمها إلا أمن إسرائيل فقط .

طال النقاش كثيراً وأخيراً اتفقوا على إصدار بيان هادئ غير مستفز لإيران .. وتطوير الدفاع المشترك وإدخال مصر والأردن في قوات درع الجزيرة لتصبح نواة لجيش عربي جاهز للتدخل السريع ..

بعد انتهاء أمين المجلس من قراءة القرارات والتوصيات بدأت أسئلة الصحافيين تنهال عليه ، أحدهم سأل وعلق :

ـــ هذه المرحلة الخطيرة بحاجة إلى تحويل المجلس إلى اتحاد تام ، أو على الأقل قيام المجلس بتعيين مفوض للشؤون الخارجية ومفوض لشؤون الدفاع ومفوض للاقتصاد ؛ لأن دول الخليج العربي لو اتحدت ستصبح واحداً من أقوى اقتصاديات العالم ، وسوف يدعم ذلك مكانتها الدولية ويقوي أمنها ..

وعلق أحد الصحفيين قائلا :

ـــ دول الخليج بحاجة إلى دعم وإنشاء مؤسسات للمجتمع المدني ، وهذه المؤسسات سوف تكون مقوية لدول المجلس ، كما أن بعض دول المجلس بحاجة إلى تشريعات لتعزيز دور المرأة في المجتمع ، وأشار بصفة خاصة إلى موضوع السماح للمرأة بقيادة السيارة في السعودية باعتبار ذلك الموضوع ضرورة وليس ترفاً ..

أحد الصحفيين أثار موضوع الانتخابات والديمقراطية في دول مجلس التعاون وتساءل عن إمكانية قيام برلمان خليجي منتخب على غرار البرلمان الأوربي ، وأحدهم تساءل عن إمكانية وقوع مواجهة عسكرية بين

إيـران ودول الخلـيج ، وعـن موقـف دول الخلـيج في حـال إذا مـا قـررت أمريكـا مهاجمـة إيـران عـسكرياً ، وهـل لـدى دول الخلـيج اسـتعدادات تامـة لمواجهـة تبعات كارثة حرب نووية في الخليج ، وتساءل عن مدى إمكانية قيام المجلس بدور الوساطة بين إيران وأمريكا لنزع فتيل التوتر في المنطقة عقب التفجير النووي الإيراني ، وتساءل عن قرار المجلس توسيع قوات درع الجزيرة ، وهل من المتصور أن تتحول إلى جيش عربي موحد ، وخاصة بعد ضم مصر والأردن وتساءل لماذا لا يضم الجيش العربي مشاركة دول عربية مهمة مثل السودان والمغرب ...

مراسل قناة CNN سأل عن موقف دول المجلس إذا طلبت الحكومة الأمريكية استخدام القواعد الجوية ومطارات دول المجلس لضرب إيران ..

وأثيرت أسئلة كثيرة حول موقف دول الخليج من إيران إذا ما قررت إغلاق مضيق هرمز ومنعت عبور ناقلات النفط العملاقة من الذهاب إلى الأسواق العالمية ..

أحد المراسلين أثار مشكلة حدوث أزمة مائية إذا تعرضت معامل تحلية المياه إلى التوقف لأي سبب ..

كانت الأسئلة كثيرة وخطيرة ، ولم يكن لدى الأمين العام للمجلس القدرة على الإجابة لأنها تتعلق بالقادة المسئولين عن المجلس ، ولذلك اكتفى بالإجابات الدبلوماسية المعتادة ..

إيران ـ ساحل الخليج العربي

وصل الرائد وليام كنيدي مع فريقه إلى الساحل الإيراني على الخليج العربي بعد رحلة متعبة بالطائرة من الولايات المتحدة ، وقد نقلته إحدى قطع الأسطول الأمريكي إلى قرب المياه الإقليمية الإيرانية ، وكان معه في الفريق مساعدته النقيب شيرين بهلوي ، وركبا قارباً مطاطياً أوصلهما إلى الساحل الإيراني .

ـ هل تشعرين بالحنين إلى هذا المكان بعد سنوات الغربة ، يا شيرين ؟

قال لها وليام وهو يحدق في عينيها وشعرها .

ـ في الحقيقة أني لا أتذكر شيئاً عن بلدي ، فقد رحلت مع والدي إلى أمريكا حين كان عمري سنتين ، كان ذلك سنة ١٩٧٩ م حينما قامت الثورة الإسلامية في إيران وأنهت حكم الشاه ، كان والدي أحد المطلوبين للثورة ..

ـ أعرف أنه بسبب قرابتك من أسرة الشاه بهلوي .

ـ ليس هذا فقط ، إضافة إلى ذلك كان والدي أحد قادة جهاز السافاك .

ـ جهاز السافاك الرهيب الذي يتهم بجرائم ضد الشعب الإيراني قبل الثورة .

ـ نعم ، وكل ما أعرفه عن إيران هو عن طريق الصور صور عائلتي ، بيتنا الفخم في طهران ، وبيتنا الصيفي على بحر قزوين ، وصور الحفلات الصاخبة التي كان والدي يقيمها في منزلنا وهي حفلات شرب ورقص .

ـ شرب ورقص في إيران !!

ـ إيران في عهد الشاه كانت تعيش حياة غربية منفتحة ، والفتاة الإيرانية كانت تتمتع بالحرية بكل أشكالها .

ـ يمكننا أن نعيد هذه الليلة ليالي الرقص والمرح ونحن في إيران الإسلامية ، قال ذلك وهو يقوم بتشغيل موسيقى من جهاز صغير ،

وأخذ بيدها وغابا في عالم الرقص وعيناه لا تكاد تفارق عينيها ..

وهمس في أذنها :

ـ أنت جميلة جداً يا شيري ..

لم تجبه ولكنها أخذت تنظر إلى عينيه وغابا في الرقص وهو يهمس في أذنها : أحبك يا شيري .. أحبك يا شيري ..

لم تجبه ولكنها وضعت رأسها على كتفه وراح يداعب شعرها ..

فتح جهاز التلفزيون ووجد قنوات الأخبار تتداول تصريحات القادة الإيرانيين الذين يهددون بتدمير وإغراق قطع الأسطول الأمريكي في الخليج والقواعد الأمريكية وضرب إسرائيل بالصواريخ بعيدة المدى ، إضافة إلى التهديد بإغلاق مضيق هرمز أمام حركة ملاحة السفن من وإلى الخليج ، إضافة إلى أخبار عن المناورات البرية والبحرية والجوية للجيش الإيراني وفيالق الحرس الثوري . أغلق التلفزيون وبدأ عمله بتشغيل جهاز الكمبيوتر والاتصال مع مجموعته ، فيما انشغلت شيرين بتركيب جهاز الاتصال عبر الأقمار الصناعية . نظر وليام من النافذة ورأى أمواج الخليج العربي ، توجَّه إلى شيرين قائلا :

ـ عندي سؤال : هل اسمه الخليج العربي أم الخليج الفارسي ؟

ـ العرب يسمونه الخليج العربي ، وإيران تسميه الخليج الفارسي ، والآن سوف يُسمَّى الخليج الأمريكي .. هاها ..

ـ ما رأيك في السباحة الآن .. لديَّ رغبة شديدة في السباحة الآن في الخليج الأمريكي ..

ـ وأنا كذلك هيا بنا ..

على الشاطئ الرملي الجميل للخليج العربي استلقيا على الرمل ، وراحت شيرين تراقب نملتين صغيرتين تتعاونان على جَرِّ قطعةٍ حَبٍّ ، وقالت

في نفسها : هذه المخلوقات الصغيرة تتعاون من أجل أن تعيش بأمن وسلام ، وليست مثل البشر الذين يتفنَّنُون في إشعال الحروب .

وقف وليام ينظر إلى مياه الخليج العربي الهادئة ، ثم سأل شيرين :

ـ كيف كان يعيش الناس في هذه الصحراء القاحلة قبل ظهور البترول ؟

ـ كانوا فقراء ، وكانوا يبحرون في الخليج إمَّا لصيد السمك أو للبحث عن اللؤلؤ ، هكذا قالت لي جدتي .

ـ وتغير كل شيء بعد ظهور البترول حتى أصبحنا نشاهد ناطحات السحب في دبي وأبو ظبي والدوحة والبحرين والرياض وطهران ...

انطلقا إلى البحر كسمكتين من أسماك الخليج ثم عادا إلى الشاطئ لاستكمال أعمال ومهمات شبكتهما على الشاطئ الإيراني ..

تلقى وليام رسالة مشفرة من رئيس مجموعة العمل والمهام الخاصة التي جاءت معه والتي تم إنزالها أيضاً على الساحل الإيراني على الخليج العربي وأخبره في رسالته أنه تم الانتهاء من إنجاز المهمة التي كلفوا بها وأنهم جاهزون لتلقي الأوامر منه لبدء عمليتهم ..

ظهرت علامات الفرح والسرور على وجه وليام وهو يتلقى هذه الأخبار السارة التي راح يخبر بها شيرين التي وجدها تمعن النظر في خريطة إيران وقد كتبت الأسماء فيها باللغتين الإنجليزية والفارسية ، سألها وليام :

ـ ماذا تفعلين شيري ؟

ـ انظر إلى خريطة بلادي الأصلية ، هذه هي أصفهان المدينة التي ولدت فيها والتي يقولون عنها بالفارسية (أصفهان نصف جهان) وتعني أصفهان نصف العالم نظراً لما تحويه من آثار وقصور ومساجد وأسواق عظيمة ، لقد كانت عاصمة الدولة الصفوية التي استمرت قرابة مائة وخمسين عاماً ..

ـ قرأت شيئاً عن حروب الشاه إسماعيل الصفوي ضد الدولة العثمانية ؟

ـ نعم هذا صحيح فقد كانت الدولة الصفوية توجه طعنات من الخلف ضد الدولة العثمانية التي كانت تحارب دول أوربا وتحقق انتصارات على الأوربيين ، وقد كانت الدولة الصفوية شيعية المذهب وقد احتلت العراق والموصل وخراسان وأفغانستان وأذربيجان ، وكانت الدول الأوربية تساعدها ، وأرسلت إنجلترا مدربين وخبراء في المدافع الحربية دربوا الجيش الصفوي على الفنون العسكرية ، وأسسوا فرقة المدفعية ، وسلحوا الجيش بالبنادق ، واشتركوا في القتال ضد العثمانيين ، وبسبب هذه المساعدات استطاع الشاه عباس الأول الانتصار على العثمانيين ، وقد انتهت الدولة الصفوية على يد أمراء الدولة الأفغانية السنية .

ـ ثقافتك التاريخية جيدة شيري .

ـ نعم ، فقد درست التاريخ واللغة الفارسية .

ـ إذاً يجب عليك أن تعلميني اللغة الفارسية لنبدأ الدرس الأول هذه الليلة .. ما معنى أحبك بالفارسية ؟

ـ دوست درام .

ـ وما معنى أنا أحبك كثيراً ؟

ـ من بيسار ترادو درام .

ـ وما معنى حبيبي ؟

ـ عشق من .

ـ وما معنى أنا أعشقك ؟

ـ توعاشق من هستي .

ـ وعمري وروحي ما معناها يا شيري ؟

ـ جان من ، ونظرت إليه وهي تدخل في لحافها سأخبرك بآخر كلمة في درس هذا اليوم شب بخير وتعني تصبح على خير .

البحرين

وكالات الأنباء العالمية ، والقنوات الإخبارية تتداول أخباراً لمراسليها في الخليج حول حصول قصف صاروخي من جهة إيران ضد سفينتين حربيتين أمريكيتين .. وقصف لقاعدة الأسطول الأمريكي في البحرين .. الأنباء تتحدث عن غرق السفينتين ومقتل مئات من الجنود الأمريكيين ، والمتحدث باسم الحكومة الإيرانية ينفي مسئولية إيران عن هذا القصف ويتهم عملاء المخابرات الأمريكية في إيران بتنفيذ هذه العمليات ، وأنباء صحفية تتهم عملاء لإيران في البحرين بقصف القاعدة الأمريكية ...

ومتحدث باسم المعارضة البحرينية في جمعية الوفاق ينفي تورطها في مهاجمة القاعدة الأمريكية ويتهم عملاء أمريكا وإسرائيل بذلك .

والإعلان في واشنطن عن خطاب مهم للرئيس الأمريكي خلال ساعات .. والأخبار تشير إلى وصول وزير الدفاع الأمريكي إلى البحرين لتفقد القوات الأمريكية والاطلاع على خسائر الجيش الأمريكي ... إيران تتهم أمريكا بتدبير مؤامرة كبرى لإشعال الحرب ضد إيران وتعيد اتهام أمريكا بتدبير أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م لتبرير هجومها على أفغانستان وتلفيق أسلحة الدمار الشامل لتبرير غزو العراق في سنة ٢٠٠٣ م وإسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين ... القنوات الإخبارية العالمية تذيع أشرطة مسجلة لتصوير الأقمار الصناعية لانطلاق الصواريخ من إيران باتجاه السفن الحربية الأمريكية .

البحرين جزيرة صغيرة في الخليج العربي لا تتعدى مساحتها ٧٦٥ كيلو متراً مربعاً ، ويلحق بها ٣٣ جزيرة صغيرة ، ونصف سكانها من السنة والنصف الآخر من الشيعة ، وفي نوفمبر ١٩٨٦ م لم تعد البحرين جزيرة عقب افتتاح جسر الملك فهد الذي يمتد على طول ٢٥ كم ليربطها بالمنطقة الشرقية من السعودية ، وقد استخدم هذا الجسر في مارس ٢٠١١ م

لعبور قوات عسكرية من درع الجزيرة إلى البحرين لحماية أمن البحرين عقب محاولة لشيعة البحرين لقلب نظام الحكم بدعم قوي من إيران .

غادر وليام وشيرين الساحل الإيراني في قارب مطاطي متجهين إلى أقرب حاملة طائرات في المياه الدولية في الخليج العربي .. كانت المياه هادئة والقمر يتلألأ في السماء مرسلاً بأضوائه الساطعة على سطح مياه الخليج .. نظر إلى عينيها الواسعتين ، وبعد برهة من الصمت قال لها :

ـ أتذكر شاعراً عربياً يقول في عينين يشبهان عينيك :

عينـــــاك غابتـــــا نخيـــــل ســـــاعة الـــــسحر

ـ وليام .. كيف عرفتَ هذا الشعر ؟ هذا البيت مطلع قصيدة أنشودة المطر للشاعر العراقي بدر شاكر السياب .. لقد حفظت القصيدة بسبب صديقتي العراقية إنعام التي كانت ترددها دائماً .

اسمع الشاعر وهو يتحدث عن الخليج :

عينـــــاك غابتـــــا نخيـــــل ســـــاعة الـــــسحر

أو شـــــرفتان راح ينـــــأى عنهمـــــا القمـــــر

عينـــــاك حـــــين تبـــــسمان تـــــورق الكـــــروم

وتـــــرقص الأضـــــواء كالأقمـــــار في نهـــــر

يرجُّـــــه المجـــــداف وهْنـــــا ســـــاعة الـــــسحر

أنشودة المطر

مطر ..

مطر ..

مطر ..

أصيح بالخليج يا خليج

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى

كأنه النشيج

يا خليج

يا واهب المحار والردى

مطر

مطر

مطر

وفي العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشوان والحجر

رحى تدور في الحقول .. حولها بشر

استلقت شيرين على ظهرها وتركته يجدف لوحده وراحت تتأمل السماء ..

ـ ما أجمل هذا الشعر .. شعر الحب في زمن الحرب .

ـ بالشعر .. بالحب .. يمكننا أن ننسى مآسي الحرب ، ولذلك أحفظ أشعاراً كثيرة ..

أخذا يستمعان من راديو صغير إلى أخبار وأعداد ضحايا الجيش الأمريكي ، سألت شيرين :

ـ أحس بتأنيب الضمير ؛ لأننا كنا السبب في مقتل هؤلاء الجنود الأبرياء

ـ إنها الحرب يا عزيزتي ، ولا بد فيها من خسائر ، ألم تسمعي عن شيء يسمى نيران صديقة ؟ اعتبري أنهم ماتوا بنيران صديقة ..

ـ في الحقيقة سمعت وشاهدت برامج تليفزيونية تزعم بأن الحكومة الأمريكية هي التي قامت بأحداث ١١ سبتمبر ، والآن أصبحت أكثر تصديقاً لهذه المزاعم ..

ـ هذه أشياء يتحمل الرؤساء مسؤوليتها ، ونحن مجرد أدوات صغيرة في هذه اللعبة العالمية ..

حديقة البيت الأبيض ـ واشنطن

وقفت مراسلة CNN تُجري مقابلات كثيرة مع سياسيين وعسكريين ومواطنين أمريكيين والجميع كان يؤكد على الانتقام من هؤلاء الذين قاموا بالاعتداء على الجنود الأمريكيين .. أحد المواطنين صرخ قائلاً :

ـــ يجب على أمريكا أن تقضي على كل المسلمين وأن تضرب مكة بالقنابل النووية .

ـ وما علاقة مكة بالهجوم على الجيش الأمريكي ؟!! سألته المذيعة .

ـ المسلمون كلهم متطرفون .

في البيت الأبيض جلس حشدٌ من الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء والقنوات الفضائية ينتظرون ظهور الرئيس الأمريكي لإلقاء كلمته .

الأنباء تتوارد من الخليج لتؤكد حدوث قصف نووي أمريكي لمدينتين إيرانيتين صغيرتين ... الأنباء تتحدث عن مقتل مئات الآلاف وتدمير شامل للمدينتين ..

يظهر الرئيس الأمريكي ليعلن للعالم بأن الهجوم على القوات الأمريكية قامت به إيران وانطلق من الأراضي الإيرانية وبواسطة صواريخ إيرانية تم التحقق منها ، وبأنه أصدر أوامره بالرد بقصف مدينتين إيرانيتين صغيرتين برأسين نوويين ويأسف لوقوع الضحايا من المدنيين ، ويحذّر إيران من أي استخدام للأسلحة النووية أو الكيماوية أو الجرثومية ضد القوات الأمريكية أو إسرائيل ، ويوجّه إنذاراً نهائياً إلى إيران بضرورة التخلي الكامل عن أسلحتها النووية والسماح للمراقبين الدوليين بدخول المواقع النووية الإيرانية وتفكيك البرنامج النووي وتسليم مخزونها من القنابل النووية ، وإذا لم تستجب إيران لذلك فإن الولايات المتحدة سوف تقوم بقصف نووي لثلاث مدن إيرانية بما فيها العاصمة طهران .

وأعطى الرئيس الأمريكي مهلة ست ساعات لإيران للرد على التهديد الأمريكي وللبعثات الدبلوماسية في طهران والمدنيين لمغادرتها .

مراسل صحيفة الواشنطن بوست وجَّه سؤالاً إلى الرئيس الأمريكي أشار فيه إلى أن معلومات مؤكدة لديه تشير إلى أن مدينتَي مشهد وقم هما ضمن المدن التي ستُقصف .

لم يُجب الرئيس على هذا السؤال تحت دعوى الحفاظ على سلامة القوات الجوية الأمريكية .

مراسل صحيفة نيويورك تايمز سأل الرئيس : ألا تعتبر أن قصف المدن الإيرانية بالرؤوس النووية يُعدّ عملاً جنونياً ؟ ألا تخافون من الرد الروسي والصيني ؟

أجاب الرئيس بأن إيران هي التي بدأت العدوان ضد أمريكا وأنني اتفقت مع صديقي الرئيس الروسي على أن أمريكا لن تبدأ الحرب ، وقد سقط مئات الضحايا من مشاة البحرية الأمريكية ، وإيران هي المسئولة عن قتلهم .. ثم غادر الرئيس معتذراً من الصحفيين .

وصل وليام وشيرين بقاربهما الصغير إلى إحدى بوارج البحرية الأمريكية .. كانا في قمة التعب والإنهاك ، ولذلك سرعان ما ذهبت شيرين إلى أخذ حمام ساخن وخرجت منه وهي ترتدي المايوه البكيني ، وذهبت مباشرة لممارسة هوايتها المفضلة السباحة في حوض السباحة ، وتعرفت هناك على مجموعة من أفراد الجيش ، وكان من ضمنهم إليزابيث ، وهي مجندة شقراء في الخامسة والعشرين من عمرها ، وكانت تتمتع بجمال وجسم فاتن .. وسرعان ما التحق بهم وليام ، وقد طغى على أحاديثهم أخبار الهجوم النووي على إيران ، وكان الشغل الشاغل لقطع البحرية الأمريكية هو مراقبة تحرك الرياح القادمة من إيران والتي قد تحمل غباراً ذرياً يهدد حياة

آلاف العسكريين ، وقد دُربوا جيداً على استخدام الأقنعة الواقية من الإشعاعات النووية ..

شيرين حكت لهم عن فيلم شاهدته عن مأساة انفجار المفاعل النووي في تشرنوبيل ، وعلقت قائلة :

ـ خلاصة هذا الفيلم أنه إذا حدث انفجار نووي فلا يمكن لأحد أن يتصور الأخطار التي يمكن أن تطال من يبعدون عنه بمئات الكيلومترات .

في المطعم قامت إليزابيث بتعريف شيرين على سوزان زميلتهما في الغرفة .. كانت سوزان لا تقل عنها جمالاً وتتمتع بطول لافت وشعر بني وبقدر كبير من المرح .

ذهبن إلى غرفتهن بعد العشاء ، وهناك ارتدت كل واحدة منهن قميص نومها ، وقد فوجئت شيرين بسؤال سوزان لها :

ـ شيرين .. هل مارست الجنس مع وليام في سفرتكما ؟

وعلقت إليزابيث بخبث :

ـ إنه وسيم جدا بشكل لا يقاوم .. أليس كذلك يا شيرين ؟

ضحكت شيرين وأخذت تقذفهما بالمخدات .

أدارت سوزان أغنية هادئة وراحت ترقص مع إليزابيث وهي تحضنها كعاشقين صغيرين التفا حول بعضهما ..

أصيبت شيرين بالذهول وهي تكتشف أن زميلتيها في الغرفة سحاقيتان .. لا بل وإنهما طلبتا منها مشاركتهما ذلك ..

كانت تعرف أن هذه السلوكيات يمنعها نظام الانضباط في الجيش الأمريكي وفي كل جيوش العالم ...

استلقت في سريرها ولم ترد أن تتدخل بينهما خاصة وأنها ضيفة مؤقتة على هذه السفينة الحربية ، ولذلك اكتفت بابتسامة وأتبعتها بكلمة ليلة سعيدة لكما ..

طهران ـ إيران

أجواء الحزن والهلع تعمّ إيران ، خاصة بعد إعلان وكالة الأنباء الإيرانية الرسمية أن عدد ضحايا الهجوم البربري الأمريكي بلغ حوالي نصف مليون شخص .

الرئيس الإيراني يُجري اتصالاً هاتفياً مع الرئيس الروسي ليطلب مساعدة روسيا ولكن الرئيس الروسي يرد عيه :

ــ أنصحكم بعدم المواجهة مع أمريكا أو استخدام أي سلاح نووي أو كيماوي حتى لا تُعرّضوا بلدكم للدمار وشعبَكم للإبادة الجماعية .

ــ ولكنهم يكذبون نحن لم نهاجمهم !!

ــ لقد اتصل بي قبل قليل الرئيس الأمريكي وقال إن الصواريخ التي أُطلقت صواريخ إيرانية الصنع وانطلقت من أراضيكم وأقمارنا التجسسية تؤكد ذلك .

ــ إن عملاء المخابرات الأمريكية وأعوانهم في إيران هم الذين قاموا بذلك من أجل توريط إيران .

ــ أنا أُصدّقُك يا فخامة الرئيس .. ولكن أمريكا وإسرائيل والعالم كله لا يُصدّقُكُم .. العالم كله ينظر إلى صور القتلى من الجنود الأمريكيين الذين تُتَّهَمون أنتم بقتلهم .

لم يكن بوسع الرئيس الإيراني أن يطلب من الرئيس الروسي أن يدخل في حرب مدمرة مع الغرب من أجل إيران ، وبدأ في عقد مناقشات حول الأزمة مع المرشد الأعلى للثورة الإسلامية وقادة الجيش والحرس الثوري لاتخاذ القرار المناسب .

الأنباء تتوارد من طهران بنزوح جماعي والسفارات الأجنبية تُجلي رعاياها من إيران واضطراب شامل يعم المدن الإيرانية ، وهناك شائعات تُبَثُّ في القنوات الفضائية تشير إلى تحرك الجيش للقيام بانقلاب عسكري ..

وشائعات أخرى عن حدوث مناوشات مسلَّحة بين عناصر من الجيش وعناصر من الحرس الثوري .. وأخبار مؤكدة من مصالح الأرصاد الجوية بانتقال الغبار الذرّي في سماء إيران إلى دول الخليج العربية .

في الاجتماع الحاسم لمجلس الأمن القومي الإيراني ، الرئيس الإيراني يستمع إلى قادة الجيش والحرس الثوري وكلهم يؤكدون أنهم جاهزون لشنّ حرب شاملة ضد الأسطول الأمريكي في الخليج وبحر العرب والبحر الأحمر وحتى القطع القريبة في البحر الأبيض المتوسط ، وأن إسرائيل يمكنها أن تتلقى ضربات بعدة آلاف من الصواريخ الإيرانية التي تصل إلى عمق إسرائيل .

ـ وماذا عن أسلحتنا الكيماوية والنووية ؟

ـــ لدينا آلاف الصواريخ المحمَّلة برؤوس كيماوية وهي جاهزة للاستخدام .. أجاب رئيس الأركان ، وواصل حديثه :

أما قنابلنا الذرّيّة فهي قليلة جداً ولا يمكن استخدامها إلا عن طريق الطائرات الحربية ، ووصولها إلى أهدافها ليس مضموناً ؛ لأن أعداءنا يتفوقون علينا بتحكمهم في الأجواء وسيطرتهم على مسرح العمليات .. كما أن حلفاءنا في العراق وسوريا ولبنان يمكن أن يشاركوا معنا .. يمكننا أن نُكبّد الأعداء خسائر بعشرات الآلاف من الجنود ، ولكن .. توقف قليلاً ونظر إلى وجوه الحاضرين وإلى خارطة كبيرة لإيران .. ولكن هذا سيعرّض بلدنا للتدمير النووي وشعبنا الإيراني للإبادة .. إنه يمثل قرار الانتحار .

ـ وما هو القرار البديل الذي ترونه ؟

ـ لا بد لنا من أن نقدّم تنازلات لهم ، إن الذين يحكمون أمريكا عصابة من اليمنيين المتطرفين الذين لا يتورَّعون عن فعل أي شيء .. انظروا إلى ما فعلوه في أفغانستان والعراق ، وما فعلوه اليوم في بلدنا .

ـ هل تريد منا أن نستسلم ونقبل الهزيمة ؟ تساءل الرئيس .

ـ كلا ليس استسلاماً إذا خسرنا معركة فهذا لا يعني أننا خسرنا الحرب .

ـ وضّح كلامك أكثر إن شروطهم مذلة للجمهورية الإسلامية ، إنهم يطلبون تفكيك برنامجنا النووي وتدمير كل مفاعلاتنا .

ـ ولكنهم لن يستطيعوا تدمير أفكارنا والعلم الموجود في عقول علمائنا، لا بد من القبول بشروطهم حتى نكسب الوقت ونعيد توزيع قواتنا ونطوّر مقدرتنا الحربية لنواجه الشيطان الأكبر أمريكا وإسرائيل ونحن في موقع أفضل .. وهنا يعلن قائد الحرس الثوري اعتراضه على هذا الموقف ويطالب بموقف حازم وإشعال المنطقة كلها ، واحتلال آبار البترول في الدول الخليجية ، وإغلاق مضيق هرمز ، وباب المندب في وجه قطع الأسطول الأمريكي .

قبل انتهاء موعد الإنذار الأمريكي يخرج الناطق باسم الحكومة الإيرانية على محطات التلفزة ليعلن قبول إيران تفكيك وإلغاء برنامجها النووي من أجل تفويت الفرصة على أعداء الثورة الذين ما زالوا يتآمرون على الجمهورية الإسلامية منذ قيامها .

التقى قائد الحرس الثوري مع المرشد الأعلى للثورة ، وحاول إقناعه بالتراجع عن دعمه لقرار الرئيس الخضوع للتهديد الأمريكي ، ولكن المرشد بقي على موقفه ، وأمره بأن يتعاون مع الرئيس وقادة الجيش حتى تتجاوز البلاد هذه الأزمة ..

في الخليج العربي هبطت مروحية على ظهر السفينة الحربية ونزل منها مدير وكالة المخابرات الأمريكية ، وعقد اجتماعاً عاجلاً مع وليام وقام بتسليمه مجموعة من الملفات عن البرنامج النووي الإيراني وقائمة بأسماء العلماء والخبراء الإيرانيين الذين عملوا فيه وخاطبه قائلاً :

ـ اسمع يا وليام ، سوف تتولى مهمة كبيرة تتعلق بنزع سلاح إيران النووي ، وسيكون معك فريق من الخبراء والمستشارين الذين سيساعدونك في مهمتك .

ـ وما طبيعة هذه المهمة ؟ هل هي أمريكية أم دولية ؟ سأل وليام .

ـ هي مهمة دولية في شكلها الظاهر ، ولكنها في حقيقتها خاضعة لسيطرتنا الكاملة ، والآن خذ هذه الورقة واقرأها جيداً لأني سوف آخذها منك فهي في غاية السرية ولم يطلع عليها إلا الرئيس ووزير الدفاع ومستشار الأمن القومي ..

أخذ وليام الورقة وجلس يقرؤها ..

هل لديك أية أسئلة يا وليام ؟

ـ نعم .

ـ لديَّ طلب وهو انضمام مساعدتي شيرين مساعدة لي في عملي .

ـ في الحقيقة كنا نتوقع طلبك هذا ، وقد نوقش هذا الأمر وتمت الموافقة على تعيينها مساعدة لك .

ـ سوف نستفيد منها بحكم معرفتها باللغة الفارسية وطبيعة إيران .

ـ هذا صحيح ، وهي واحدة من أذكى الموظفات لدينا ، أعرف أنها ستكون مهمة صعبة ، ولكني واثق من نجاحك فيها ، وكن على ثقة بأننا سنكون معك دائماً لتجاوز أي مشكلة تتعرض لها ..

ـ شكراً لك سيدي ..

نيويورك ـ الأمم المتحدة

كان المبنى العتيد لهيئة الأمم المتحدة في نيويورك يشهد حركة دائبة ؛ حيث يتقاطر وصول الوفود على المبنى ، والدبلوماسيون والصحافيون يتجولون في أروقته ومنتدياته ، وكانت الأزمة الإيرانية هي حديث الجميع ، كما لفت انتباه الجميع البيان الذي وقّعت عليه أكثر من مائة وخمسين دولة ، ويدعو إلى إصلاح ميثاق المنظمة ، والتخلص من هيمنة الدول العظمى على مجلس الأمن ، وإلغاء حق النقض (الفيتو) ، ويهدد البيان بالانسحاب الجماعي من الأمم المتحدة ، وتأسيس هيئة دولية جديدة إذا فشلت مساعي الإصلاح .

داخل أروقة مبنى الأمم المتحدة كانت تجري لقاءات ساخنة بين مندوبي الدول وفي مؤتمر صحفي وقف وزير خارجية إيران يصرّح :

ـ جمهورية إيران الإسلامية بريئة من دماء الجنود الأمريكيين ، ولكننا وافقنا على تسليم أسلحتنا النووية حتى لا نُعرّضَ بلادنا للتدمير .

ـ كم قنبلة نووية تمتلكها إيران حالياً ؟ سأله أحد المراسلين .

ـ في حدود علمي أنها بضع قنابل فقط ..

وفي هذه الأثناء عقد مجلس الأمن الدولي اجتماعا وأصدر قرارا بالإجماع يفوّض الأمين العام للأمم المتحدة تشكيل فِرَق لتفكيك البرنامج النووي الإيراني وتدمير المفاعلات الذرية ، وتضم الفرق أعضاء ومراقبين من الدول الخمسة الدائمة في مجلس الأمن .

الأمين العام للأمم المتحدة يعلن تعيين الخبير الأمريكي وليام كنيدي رئيساً لفرق التفتيش في إيران .

لم يكن الخبر مفاجئاً لوليام حيث تم إبلاغه من قبل رئيس CIA بترشيحه لهذا العمل مع إخفاء حقيقة كونه ضابطاً في المخابرات الأمريكية، حين أطْلَعَ وليام شيرين على الخبر كانت مسرورة جداً وقالت له :

ـ واااااو .. رائع يا وليام أخيراً سوف أتمكن من التجول في ربوع بلدي إيران بدون خوف من القبض علينا كجواسيس .

ـ ولكن هذه المهمة صعبة يا شيري ، إن التعامل مع الإيرانيين صعب ومتعب ، إنهم أذكياء ودهاة في السياسة والمراوغة .

ـ وأنت يا وليام ذكي وداهية متى سنبدأ مهمتنا ؟

ـ بعد أسبوع حين يكتمل حضور أعضاء الفرق والمراقبين الدوليين .

ـ وكيف ستبدأ ؟

ـ سيبدأ العمل باجتماعات لأعضاء الفرق لمعرفة طبيعة العمل وتوزيع المسئوليات .. لقد وزعت العمل على عدة فرق وكل فرقة تتولى أمراً خاصاً بها .

ـ وفي أي فرقة وضعتني يا وليام ؟

ـ لقد عيَّنتُكِ رئيسة لأخطر فرقة .

ـ ماذا تقصد يا وليام ؟

ـ أنتِ رئيسة فرقة استلام القنابل النووية ، أخيراً يا شيري سوف تشاهدين قنبلة نووية ، وقد تضعينها بجانب سرير نومك ... قال ذلك وهو يطلق ضحكة خفيفة .

صعد وليام وشيرين إحدى المروحيات العسكرية التي نقلتهما إلى العاصمة البحرينية المنامة ، أخذت شيرين مفتاح غرفتها في الفندق ، كانت في قمة التعب والإرهاق ولذلك راحت في نوم عميق .. ورأت في منامها حلماً جميلاً ؛ رأت فيه نفسها في روض أخضر .. وهي تلبس فستاناً أبيض .. تركض وسط الحقول الخضراء ..

استيقظت من نومها وحلمها على صوت هاتف غرفتها ، إنه وليام يطلب منها النزول إلى مطعم الفندق للإفطار والذهاب في جولة تسوق قصيرة في أسواق البحرين ..

على مائدة الإفطار قالت شيرين :

ـ اسمع يا وليام .. أريد أن أذهب إلى أحد محلات المكياج والعطور .. لا تنسَ ذلك ..

ـ المرأة هي المرأة .. لا تنسى مكياجها حتى في زمن الحرب ، حتى لو أصبحت رئيسة دولة ، أذكر قصة قرأتها عن أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند .. فقد تأخرت عن لقاء أحد السفراء بسبب المكياج ، وأراد السفير أن يمازحها فقال لها : إن المرأة لا تترك مكياجها حتى ولو أصبحت رئيسة وزراء .. فغضبت منه وأنهت اللقاء معه ، ثم طلبت من وزارة الخارجية أن تطالب دولته بتغيير هذا السفير ..

ـ أنا مؤمنة بالمثل الإنجليزي الذي يقول :

النساء أحكم من الرجال في وقت المحن .

ـ ولكن هناك مثل إنجليزي آخر يقول :

المرأة ملاك في العاشرة ، وقديسة في الخامسة عشرة ، وشيطانة في الأربعين ، ومنجمة في الثمانين .

ـ أنا لم أصل إلى سن الأربعين .

ـ هذا يعني أنك ما زلت قديسة .

ـ وليام .. ما دام حديثنا عن المرأة ، أسألك لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

ـ من الصعب أن أجد المرأة التي تصلح لي زوجة ، وأنا أتبع قول برنارد شو الذي يقول : « بين ستين امرأة .. يمكن أن تجد امرأة واحدة

تـصلح أن تكـون نـصف زوجـة)) .. هـل سمعـت يـا شـيرين بقـصة الفيلسوف اليوناني سقراط مع زوجته ؟

ـ أعرف أنها كانت زوجة سيئة وسليطة اللسان ..

ـ نعم .. كانت سيئة وسليطة اللسان ، وهذا الذي جعل منه فيلسوفاً عظيماً ..

ـ ولذلك ينسب إليه المثل المشهور : وراء كل عظيم امرأة ..

ـ كان يهرب منها قبل طلوع الشمس ، ويجلس مع تلاميذه حتى المغرب .. جاءته مرة وهو جالس مع تلاميذه ، وطلبت منه أن يساعدها في بعض الأعمال ، ولكنه انشغل عنها بالنقاش مع تلاميذه فرفعت صوتها عليه ، ثم جاءت بسطل ماء وصبَّته فوق رأسه ، وانزعج تلاميذه ، وتعجبوا من جرأتها على معلمهم ، ولكنه نظر إليهم بهدوء وقال : بعد كل هذه الرعود فلا بد أن نتوقع هطول هذه الأمطار ..

ونصح أحد تلاميذه قائلاً :

تـزوج يـا بـني ، فـإن رُزقـت بزوجـة صـالحة عـشت سـعيداً ، وإن رُزقـت بزوجة شريرة أصبحت فيلسوفاً مثلي ..

طهران ـ إيران

أقلعت الطائرة التي فيها وليام وشيرين من مطار البحرين وبعد أقل من ساعة كانت تحلق فوق الأراضي الإيرانية ، وفي طريقها إلى الهبوط في مطار طهران شاهدت شيرين معالم طهران وشوارعها الفسيحة ، وتذكرت والدها ووالدتها وأسرتها التي هاجرت من إيران قبل ثمانية وثلاثين عاماً ، ومالت إلى وليام وسألته :

ـ وليام .. لماذا تريد أمريكا تدمير طهران ؟

ـ ولماذا إيران تمتلك قنابل نووية ؟

ـ مثل بقية الدول النووية .

ـ كلا .. أمريكا والغرب ينظر إلى إيران على أنها دولة راعية للإرهاب وتعطي الأسلحة لمنظمات إرهابية مثل حزب الله وحماس .

ـ هل تقصد أن إيران يمكن أن تعطي حزب الله قنبلة نووية مثلاً ؟!!

ـ هذا الأمر الذي يقلق قادة إسرائيل وهو يهدد وجود دولة إسرائيل إذا وصلت قنبلة واحدة إلى حزب الله ، فهذا يعني أنها أصبحت على بعد أمتار من حدود دولة إسرائيل .

ـ لا شك أن هذا أسوأ سيناريو يمكن للإسرائيليين تخيله .

وأخيراً هبطت الطائرة في أرض مطار طهران الدولي ، وحين ركبت السيارة مع وليام راحت تتأمل شوارع طهران المليئة بالشعارات الثورية وصور الخميني والخامنئي وصور شهداء الثورة ، ولفت نظرها صور القتلى في الحرب العراقية الإيرانية فقالت لوليام :

ـ لقد سمعت بأن ضحايا الحرب من الجانبين بلغوا ملايين القتلى والجرحى .

ـ هذا صحيح ؛ فالحرب استمرت ثماني سنوات ، وإضافة إلى الضحايا لقد دمرت الحرب البلدين وتسببت في انهيار اقتصادهما .

ـ ومن الذي انتصر فيها ؟

ـ الكل يدَّعي أنه انتصر ، والحقيقة أنه ليس فيها منتصر ، فالكل خاسر ، والمنتصر الأكبر هو الغرب وروسيا والدول الكبرى التي ازدهر اقتصادها وإنتاجها الحربي .

ـ وهؤلاء الأغبياء يتقاتلون ثماني سنوات وقد سعى الغرب إلى تسويق الحرب على أنها حرب طائفية سُنّيَّة شيعية ؛ إيران الشيعية ضد العراق السُّنّيَّة .

وصلت السيارة إلى مقر الإقامة .. وبدأ المراقبون عملهم .. وكانت تواجههم بعض المشكلات وخاصة من جانب الإيرانيين الذين كانوا يماطلون في تنفيذ طلبات فرق المراقبة والتفكيك .

وبدأت شيرين مهمتها وأخبرها المسئولون الإيرانيون بوجود خمس قنابل نووية بحوزتهم في المستودعات وتم بالتعاون مع خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية البدء في تفجير هذه القنابل ، وكان مشهد رؤيتها لهذه القنابل مشهداً مثيراً لا يمكن أن تنساه في حياتها .

ـ وليام .. لم أكن أتصور أن أرى في حياتي قنبلة نووية واحدة ، وحين ضغطت على زر التفجير النووي أحسست بشعور غريب .. إن العالم سيكون أكثر أمناً حين نتخلص من السلاح النووي .

ـ ليس بالضرورة .. إن الأمن العالمي يتعلق بعقلية البشر .. حين يسمح العالم لدكتاتور أن يتصرف كما يشاء ويقتل ويدمر فهذا أسوأ من السلاح الذري .. انظري لقد أخطأ العالم حين تساهل مع هتلر ، وكانت النتيجة مقتل خمسين مليون إنسان في الحرب العالمية الثانية .

ـ شيري .. هل أنت متأكدة من التخلص من كل القنابل النووية ؟

ـ نعم .. فقد شاهدت عملية تفجير كل قنبلة وهو موثق بالصور .

ـ أقصد هل هذه القنابل الخمس هي كل ما أنتجته إيران ؟

ـ ماذا تقصد ؟ لقد قام الخبراء بتفتيش كل المواقع بما فيها مخازن السلاح النووي .

ـ أقصد أن إخفاء قنبلة نووية ليس أمراً صعباً ، اليوم كنت أراجع كميات الوقود المخصب ، وفوجئت بأنه يكفي لصنع سبع قنابل نووية .

ـ وماذا عن الوقود الذي قدمته لكم الحكومة الإيرانية ؟

ـ إنه قليل جداً وأقل بكثير مما هو موثق في الحاسب الآلي الذي اطلعت عليه .

ـ وماذا يعني ذلك ؟

ـ هذا يعني أن هناك قنبلتين نوويتين تخفيهما إيران .

ـ يا إلهي .. هذا فظيع ، وماذا ستفعل ؟

ـ سأطلب مقابلة كل العلماء الذين عملوا في البرنامج ، وسأطلب تفتيشاً شاملاً لكل المواقع العسكرية .

في مقابلته مع المسئولين الإيرانيين أنكروا أي علم لهم بذلك ولم يسمحوا له إلا بمقابلة عدد محدود من العلماء ، وبعد تفتيش مواقعهم العسكرية لم يجدوا شيئاً ...

أبلغ وليام رؤساءه في المخابرات الأمريكية الذين ضاعفوا عمليات التجسس والمراقبة واستطاعوا تسجيل مكالمات تؤكد صحة المعلومات التي قدمها وليام وتم إخباره بأن المعلومات التي لديهم أن قنبلتين وضعتا في سيارة مرسيدس سوداء وهي في طريقها إلى الحدود الإيرانية العراقية ، ولاحقاً تم إبلاغه بأن أقمار التجسس الأمريكية رصدت عبور السيارة الحدود الإيرانية العراقية منطلقة داخل الأراضي العراقية ، وصدرت له الأوامر بالسفر إلى العراق لتولي متابعة الهدف .

تحدث وليام مع شيرين عن عملية قصف إسرائيل وتدميرها للمفاعل النووي العراقي ..

ـــ في شهر تموز ١٩٨١ م قامت ست عشرة طائرة إسرائيلية بتدمير المفاعل النووي العراقي في عملية استمرت دقيقتين فقط ، ورجعت الطائرات إلى إسرائيل سليمة .

ـ أظن أن إيران شنَّت هجوماً على المفاعل العراقي أيضاً ؟

ـــ نعم .. قامت في سبتمبر ١٩٨٠ م بهجوم جوي فاشل على المفاعل ، ولكن المضادات العراقية تصدَّت لهم .

ـ ولماذا لم تنجح المضادات العراقية في صدِّ الهجوم الإسرائيلي ؟

ـــ أطلقت المضادات العراقية ، ولكنها لم تُصب أياً من الطائرات التي كانت قد ابتعدت ، كان الهجوم سريعاً وخاطفاً .

أخذ وليام يقرأ تقريراً عن صلة قاسم سليماني قائد فيلق القدس بعملية تهريب القنبلتين ، ويشير التقرير إلى ما يتمتع به من نفوذ قوي في إيران والعراق وسوريا منذ عام ٢٠٠٣ م حين غزت الولايات المتحدة وبريطانيا العراق ، وأسقطت نظام حكم الرئيس العراقي صدام حسين ، فأصبح المجال مفتوحاً أمام إيران لتبسط نفوذها في العراق ، فقامت بإنشاء ودعم الميليشيات الشيعية الموالية لها ، وبعضها يعتبر امتداداً للحرس الثوري ، كما أنها دعمت ميليشيات الحشد الشعبي الشيعية التي قامت بجرائم حرب ضد أهل السنة في الرمادي والفلوجة والموصل ، وأصبحت بمثابة جيش يضم كافة الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدفعية وراجمات للصواريخ .

العراق ـ الحدود الإيرانية العراقية

صعد وليام ومعه شيرين مروحية منطلقاً صوب الحدود الإيرانية العراقية ، وكان على اتصال بالقيادة العسكرية الأمريكية التي تمده بمعلومات أقمار التجسس التي تتابع السيارة ، واستطاعت المروحية أن تصل إلى السيارة وجاءته الأوامر من القيادة :

ـ وليام اعتقل ركاب السيارة واحملهم بالمروحية .

ـ وماذا عن السيارة وحمولتها الخطيرة ؟

ـ تولَّ قيادة السيارة مع حمولتها واتجه بها فوراً إلى السفارة الأمريكية في بغداد .

ـ كم تبعد بغداد من هنا ؟

ـ أنت على مسافة ساعة واحدة سوف ترسل لك السفارة سيارة تنتظرك عند مدخل بغداد وتضع لوحات دبلوماسية على السيارة ليسهل دخولها بغداد وتتجه فوراً إلى المنطقة الخضراء .

بدأ وليام مطاردة السيارة التي خفَّضت سرعتها ، وفجأة انطلق من السيارة صاروخ صغير استطاع أن يصيب المروحية ، وبدأ اشتعال النيران فيها ، ولكنها استطاعت أن تهبط بسلام ويخرج منها وليام وشيرين .. وقفا يشاهدان المروحية وهي تنفجر بعد لحظات من خروجهما منها ، والسيارة تختفي بسرعة البرق عن أنظارهما .

نجح وليام في الاتصال بقيادته وإخبارها بالأخبار السيئة التي حصلت وجاءته الأوامر بالتوجه بأسرع وقت إلى السفارة الأمريكية في بغداد حفاظاً على سلامتهما .. وقفا على جانب الطريق ينتظران سيارة ، وبعد دقائق مرت سيارة تاكسي وركبا معه متجهين إلى بغداد ، كان سائق التاكسي ثرثاراً وأخذ يسألهما عن سبب مجيئهما إلى هذا المكان ؛ فردت عليه شيرين ـ وكانت تتقن اللغة العربية ـ بأن سيارتهما قد تعطلت في الصحراء ويرغبان

في إحضار من يصلحها ، وحين عرف أنها من إيران بدأ يحدثها عما فعله صدام حسين مع إيران قائلاً :

ـ بعد ما جاء صدام حسين إلى الحكم سنة ١٩٧٩ م بدأت مآسي العراق؛ فهو الذي بدأ سنة ١٩٨٠ م الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات وأكلت الأخضر واليابس ودمرت اقتصاد البلدين وقُتل فيها مئات الآلاف من البشر من الجانبين .

ـ وكيف توقفت الحرب ؟ سألت شيرين .

ـ انتهت بعدما عرفت إيران أنها لعبة تلعبها أمريكا والدول الكبرى لكي يدمر اقتصادنا ومدننا وتزدهر مبيعات أسلحتهم واقتصادهم . وبعد سنتين فقط من انتهاء الحرب ارتكب صدام حماقة وجريمة ثانية ، وهي احتلال الكويت سنة ١٩٩٠ م .

ولكن أمريكا لم تسمح له بالاستمرار في هذه الحماقة وجاءت بجيوشها وجيوش حلفائها من أجل طرد العراق من الكويت ، أتدرين لماذا ؟

ـ أعرف أن صدام خالف كل القوانين الدولية التي تحرّم احتلال أراضي الغير بالقوة .

ـ هذا هو السبب الظاهر ، ولكن الأسباب الخفية هي أنه هدد بحرق نصف إسرائيل بالأسلحة الكيماوية ، ولهذا قامت أمريكا بتدمير الجيش العراقي الكبير .

بدأت شيرين مستمتعة في الحديث معه ، ولهذا سألته :

ـ ماذا عن انتفاضة الشيعة في العراق سنة ١٩٩١ م وقمع صدام الوحشي لهم ؟

ـ صدام كان في منتهى القسوة وأمريكا ساعدته وسكتت عن جرائمه ، وهي التي قتلت أطفال العراق في الحصار الاقتصادي الظالم الذي

قامت به وقتلت مليون طفل عراقي ، وشرَّدت أربعة ملايين عراقي بعد الغـزو الأمريكـي للعـراق سـنة ٢٠٠٣ م ، ودمَّـرت مـدن العـراق .. هـل تعرفين ماذا حصل في الفلوجة ؟

ـ سمعت عنها وعن تدميرها .

ـ لم تدمر فقط ، ولكنها قُصفت بذخائر اليورانيوم المنضب .

ـ لقد سمعت عن ذلك من خلال تقارير القنوات الفضائية ، ومن خلال ما كتبته عالمة أمريكية كبيرة الدكتورة روزالي برتل التي كتبت بحوثاً حول استخدام اليورانيوم المنضب في الحرب ضد العراق وعلاقته بإصابة الجنود الأمريكيين بمتلازمة حرب الخليج التي ردت فيها على أكاذيب البنتاجون ، وأثبتت أن اليورانيوم يسبب تلفاً كيميائياً وإشعاعياً في الخلايا الحية ، ويستهدف جهاز المناعة ، وله آثار مسرطنة ، ويولد التشوهات الخلقية في النسل .

ـ وهناك جرائم نهب آثار العراق ، ومن ضمنها سرقة الأرشيف اليهودي وإحراق المكتبة الوطنية في بغداد .

ـ ولكن أمريكا انسحبت الآن من العراق وسلمت الحكم لحكومة ديمقراطية .

ـ جاءت الديمقراطية بحكومات تهيمن عليها إيران حتى أصبح الناس في العراق يترحَّمون على صدام حسين الذي لم تحدث في عهده هذه التفجيرات والإرهاب ، إضافة إلى تهميش السُّنَّة في العراق واعتقالهم في السجون تحت مسمى اجتثاث البعث .

ـ ولكن هذه هي الديمقراطية .. الأغلبية هي التي تحكم سواء كانوا من السنة أو الشيعة أو الأكراد ، وعليكم أن تعيشوا بسلام وهدوء ولا يتدخل أحدٌ في دِين الآخر .

وصلوا بعد ساعة إلى بغداد ونزلوا عند البوابة الخارجية للسفارة الأمريكية التي تقع في المنطقة الخضراء .

تحدث وليام مع قيادته وأخبروه أن أقمار التجسس تتابع السيارة وسوف يخبرونه بما يستجد من أمور .. ذهب وليام مع شيرين لزيارة أحد أصدقاء والد شيرين .. سارت بهم السيارة على ضفاف نهر دجلة ، وتوقفوا لتناول الغداء في أحد المطاعم على النهر ، وأكلوا السمك المسكوف واستمعوا إلى حوارات بين اثنين من العراقيين .. كان أحدهما يمتدح الوضع الحالي في العراق ، بينما الآخر كان يسبّ ويشتم أمريكا التي جلبت الخراب والدمار بعد احتلالها ، ونهبها ثروات العراق وكنوزه وآثاره ، ومكّنت المليشيات الطائفية من السيطرة على الشارع العراقي .. وتحسَّر على ماضي العراق المجيد في خمسينيات القرن العشرين حين كانت الأنهار تجري في البصرة التي كانت تسمى فينيسيا الشرق ..

شارك في الحوار عراقيٌّ قال إنه كان أحد سجناء الأمريكان في سجن أبو غريب وقال إن ما قام به الجنود الأمريكان من جرائم ضد المعتقلين يفوق الوصف، وأشار تحديدا إلى جرائم الاغتصاب للنساء ، وأشار إلى جريمة اغتصاب الطفلة العراقية ذات ١٤ ربيعاً من قبل عدد من الجنود الأمريكان ، ثم قيامهم بقتلها وإعدام عائلتها في مدينة المحمودية ... وقال إن معاناة العراق كبرت بعد خروج الأمريكان وبسبب سياسات نوري المالكي الطائفية ، والتي أدت إلى ظهور وسيطرة الدولة الإسلامية (داعش) على جزء كبير من شمال وغرب العراق ، وارتكابهم جرائم قتل وخاصة ضد الطائفة اليزيدية الذين تم تهجيرهم من بلادهم ، وتم اختطاف واغتصاب الآلاف من بناتهم ونسائهم ، وتم بيعهن مثل الرقيق ..

وتحدث عن مقتل أكثر من مليون عراقي على يد قوات الاحتلال الأمريكي وتهجير أكثر من أربعة ملايين من مدنهم .

سار وليام وشيرين في شارع أبو نواس على نهر دجلة ، والذي يتميز بأشجاره الجميلة على الجانبين ، وتنتشر على جانبيه المطاعم ودور السينما ، وكانت العائلات العراقية تعشق السمر على كورنيشه الرائع في السبعينيات .

جلس وليام وشيرين في أحد مقاهي فندق الرشيد الذي تم بناؤه ليكون مقراً لملوك ورؤساء ووفود الدول العربية .. أخذ وليام يتذكر آخر مرة جلس فيه ..

ـ آخر مرة دخلت هذا الفندق كانت في حرب الخليج الثانية ، لقد رسم العراقيون صورة الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب على أرضية مدخل الفندق لتُداس بالأقدام ، وقد تعرض لقصف صاروخي أمريكي سنة ١٩٩٣ م ، لم يعد الفندق كما كان في عهده السابق ..

ـ أتذكر أنه كان يقيم فيه عدد من السياسيين والصحافيين أثناء زيارتهم إلى بغداد .

ـ كان يعجُّ بمئات الصحفيين في حرب الخليج الثانية ، وفي أثناء الغزو الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ م .

أحس وليام بارتياب من أحد الأشخاص الذي جلس بالقرب منه ، وكأنه كان يتصنَّت على حديثهما ، ولذلك اقترح على شيرين القيام بالتجول مشياً بمحاذاة نهر دجلة .. وراح يحدثها قائلاً :

ـ على هذا النهر الخالد أقيمت بغداد عاصمة العباسيين ، على هذا النهر أقيمت القصور والفلل الفخمة ..

ـ أتذكر أن قصر الرحاب يقع على هذا النهر .

ـ نعم .. وفيه جرت مجزرة قصر الرحاب سنة ١٩٥٨ م التي أعدمت فيها الأسرة الهاشمية الحاكمة ، ومن ضمنها فيصل الثاني ملك العراق وعبد الإله الوصي على العرش .. كان الملك فيصل قد بنى له القصر الملكي ، وكان ينوي الزواج والاستقرار فيه ، ولكنه لم يُكتب له ، وسكنه رؤساء العراق عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر ..

ـ وصدام حسين ؟

ـ لا .. لم يسكن فيه صدام ، صدام كانت له أكثر من عشرة قصور في بغداد ، يتنقل بينها ، وكذلك عبد الكريم قاسم لم يسكنه ، بقي يسكن في غرفة في وزارة الدفاع حتى يوم إعدامه .

في الطريق مروا على بعض الأولاد الذين يبيعون العلكة والحلويات ، سألهم وليام :

ـ ما أنواع العلكة التي عندكم ؟

ـ لدينا كل الأنواع والأعمار .. يمكنك أن تأتي معنا إلى البيت لترى بعينك ، وتختار ما يعجبك ..

عرف وليام أنهم مجرد أولاد صغار يجذبون السياح إلى بيوت الدعارة، ويأخذون مكافأة مقابل جلبهم للزبائن .

تلقى وليام اتصالاً هاتفياً من رؤسائه ، وأبلغوه بأن أقمار التجسس رصدت السيارة وهي تتجه الآن نحو الحدود العراقية السورية ، وطلبوا منه التوجه إلى كردستان العراق ؛ ليتم الترتيب لدخوله سوريا عن طريق كردستان ..

كردستان ـ العراق

على طول الطريق من بغداد والمتجه شمالاً إلى إقليم كردستان لاحظ وليام وشيرين مظاهر البؤس وآثار الحروب في كل المدن والقرى التي يمرون بها .. كان ذلك مستغرباً في دولة تملك واحداً من أكبر احتياطيات النفط في العالم .. فساد الحكومات المتعاقبة منذ الاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣ م هو الذي حوَّل العراق إلى دولة متخلفة ، هكذا قال لهم سائق التاكسي الكردي الذي أجاب عن حالة الاستغراب التي بدت في أذهانهم .. وقال لهم : إن إقليم كردستان حصل على الحكم الذاتي سنة ٢٠٠٣ م وهو في طريقه إلى الاستقلال ..

لاحظ وليام وشيرين أن علم كردستان هو الذي يرفرف في كل مدينة في كردستان ولا يوجد أثر للعلم العراقي ..

ـ هل الناس هنا تؤيد الاستقلال عن العراق ؟ سأل وليام سائق التاكسي .

ـــ إن غالبية الناس هنا تريد الاستقلال ، ولكن القوى الإقليمية والكبرى ترفض ذلك ؛ لأن الشعب الكردي وأراضي كردستان موزعة على أربع دول هي : العراق وتركيا وإيران وسوريا ، وهذه الدول ترفض قيام دولة كردستان لأنها ستقتطع جزءا كبيرا من أراضيها وثرواتها .. إن الاستقلال وتأسيس دولة كردستان هو حلمنا ولكننا نعيش في حكم ذاتي شبيه بالاستقلال ، والحكومة العراقية المركزية لا تتدخل في شئوننا ولدينا أجهزتنا الأمنية واستقلالنا المالي ، ولدينا جيش مستقل يسمى (البشمرقة) يدافع عن الإقليم ويحافظ على حدودنا ..

ـ ولكننا نسمع عن مشكلات بينكم وبين الحكومة العراقية . سألت شيرين .

ـ المشكلات تدور حول البترول وخاصة في كركوك ، وامتناع الحكومة عن تحويل المخصصات المالية للإقليم .

في أحد المتنزهات في مدينة السليمانية التقى وليام مع روناك ، وهي التي تم تكليفها بنقلهما عبر أراضي كردستان إلى سوريا .. كانت روناك امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها وتتمتع بجسم ضخم وجمال ملفت للنظر ، وقد لاحظ وليام أن معظم نساء كردستان يشبهنها في الجسم والجمال والشعر الطويل وحرية اللبس .

ـ كيف كانت رحلتكما من بغداد إلى كردستان ؟ سألتهما روناك .

ـ كانت مريحة .. ولكن أحسسنا بشعور مختلف حين دخلنا كردستان وكأننا خرجنا من العراق . قال وليام .

ـ هذا صحيح .. كردستان تختلف في طبيعتها ولغتها عن باقي مناطق العراق ..

ـ ووضع المرأة هنا مختلف كما أرى ، علَّقت شيرين .

ـ هذا صحيح .. هنا في كردستان المرأة تتمتع بكل حريتها ولا وجود لأي جماعات دينية أو منظمات طائفية تضطهد المرأة ، فهي تلبس ما تشاء ، وتعمل في كل الوظائف ، ويوجد في البشمركة عدد كبير من النساء ، والمرأة الكردية قوية ويُعتمد عليها .

ـ وجمال الطبيعة في بلادكم مختلف أيضاً .

ـ لقد حبانا الله بهذه الخضرة والجبال والأنهار ، ولولا الحروب والمشاكل لكانت كردستان هي الوجهة السياحية الأولى في الشرق الأوسط .

ـ وماذا عن سفرنا إلى سوريا ؟ سألتها شيرين .

ـ سوف أكون رفيقتكم في هذه السفرة الخطرة ؛ لأنكم سوف تمرُّون بمناطق تسيطر عليها الدولة الإسلامية في العراق وسوريا ، وسوف نسير في طرق غير معبَّدة .. ومعنا سيارة دفع رباعي مجهزة بكل التجهيزات المناسبة للرحلة .

انطلق السيارة بركابها الثلاثة ، وانشغل وليام مع شيرين بمراجعة الخرائط ، أما روناك فقد استرجعت ذكريات والدها وأسرتها وهي ترحل عن مدينة حلبجة بعدما تعرضت للقصف بالغازات الكيماوية السامة أثناء الحرب العراقية الإيرانية ، وصور جثث الضحايا من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ لا تكاد تفارق ذاكرتها .

ــ ما تفسيرك لظهور داعش وسيطرة الدولة الإسلامية السريع على جزء كبير من أراضي العراق ؟ قطع سؤال وليام على روناك حبال تفكيرها وأعادها إلى الحاضر .

ــ داعش لغزٌ كبير ومحيّر .

ــ من هم ؟ وكيف تكونت قوتهم ؟ هل صحيح أنهم يمثلون بقية جيش صدام حسين ؟

ــ هناك من يقول إن جزءاً منهم من جنود وضباط جيش العراق قبل الاحتلال ، وهناك من يقول إن زعيمهم عميل للمخابرات الإسرائيلية (الموساد) وأن أمريكا تدعمهم من أجل استمرار الصراع في المنطقة لسنوات وإرهاب الجميع بهم .. خاصة أن الطائرات الأمريكية أمدتهم بأسلحة حديثة وادَّعت أن ذلك كان بالخطأ .

ــ وكيف سقطت الموصل والأنبار بأيديهم بكل سهولة ؟ سألت شيرين .

ــ هذا أيضاً لغز كبير .. إن انسحاب الجيش العراقي السريع والمذل أمامهم في الموصل والأنبار يثير علامات التعجب .

ــ وماذا عن علاقتهم بالمكوّن السني ؟ هل يمثلون السنة في العراق ؟ سأل وليام .

ـ هم من المكوّن السني ولكنهم لا يمثلون السنة ، وكثير منهم نزح من المدن السنية التي تم تهجير أهلها أثناء الاحتلال الأمريكي أو بعده أثناء حكم المالكي على يد الميليشيات الطائفية ..

واصلوا مسيرتهم باتجاه الحدود السورية .

ـ بعد هذه التلال سوف نكون في سوريا . قالت روناك .

اضطرت روناك لإيقاف السيارة لإصلاح إحدى عجلات السيارة ، ونزل الجميع لمساعدتهما وبسرعة قاموا بإصلاح الخلل .. ولكنهم فجأة وجدوا أنفسهم أمام مجموعة مسلحة ، ولم يتمكنوا من طلب المساعدة بواسطة هاتف الثريا .. تم اقتيادهم إلى منزل مهجور وتم فصل وليام عن رفيقتيه شيرين وروناك .

ادعى وليام أنهم صحفيون تائهون ، وهذا ما اتفقوا عليه مسبقاً في حالة وقوع طارئ .. كان يخشى أن تكون هذه المجموعة المسلحة تنتمي إلى داعش ، ولكن اتضح له من أشكالهم غير الملتحية ومن شربهم للخمور أنهم مجموعة من قُطَّاع الطرق .. وقد طلبوا منهم فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم .

ـ نحن صحفيون ولا نملك المال . قال وليام لزعيم المجموعة .

ـ أعرف ذلك .. ولكن أنت رجل غربي ودولتك غنية وستدفع الفدية لإطلاق سراحك . هكذا رد عليه زعيم المجموعة بلغة إنجليزية ركيكة .

ترك الزعيم وليام وذهب إلى المرأتين وقال لهما :

ـ أنتما فتاتان جميلتان لا بد أن تدفعا مبلغاً كبيراً وإلا سوف نبيعكما إلى داعش .

ـ هما ضيفان على بلادنا ولا يجب أن يتعرضا إلى أي أذى . قالت روناك .

طال الحديث بين روناك والعصابة المسلحة بلا فائدة ..

في المساء جلست شيرين تحدث نفسها : ((ترى ماذا سيكون مصيري في هذه البلاد ؟ هل سأنجو ؟ هل سيتم إنقاذي ؟ نحن هنا في مكان مجهول لا أحد يعرف عنا شيئاً)) .

فوجئت شيرين ورونالك بأربعة من المجموعة المسلحة يدخلون عليهما الغرفة وأخذ قائد المجموعة يتحرش بهما فدفعتاه بقوة وبصقت شيرين عليه فوقف كالثور الهائج يمزق ملابسها وشرع الأربعة ينتهكون جسديهما ، وقاموا بالشروع في اغتصابهما بالقوة وسط صرخاتهما المدوية في المكان .. سمع وليام صَرَخَاتهما واستطاع أن يفك القيود عنه بواسطة مشرط صغير كان مخبأ في ملابسه لمثل هذه الأوقات ، واستطاع التغلب على الحارس وأخذ سلاحه الرشاش منه ، ثم توجه إلى الغرفة التي تصدر منها أصوات المرأتين واستطاع بسهولة أن يُردي المسلحين الذين كانوا عراة فسقطوا يتخبطون في دمائهم وسط صيحات شيرين ورونالك اللتين حاولتا ستر جسديهما بملابسهما الممزقة .

أسرع وليام إلى السيارة واتصل بقيادته وأخبرهم بما حصل .. شعروا بالقلق عليهم وطلبوا منهم أن يأخذوا حذرهم وينامو هذه الليلة حتى تهدأ أعصاب شيرين ورونالك .

وفي الصباح يتجهون إلى داخل الأراضي السورية ..

حرص وليام على أن يكون تحركه في سوريا تحت مظلة الأمم المتحدة ؛ لأنه كان يدرك المخاطر التي تواجهه ؛ فسوريا تشتعل فيها ثورة شعبية منذ سنة ٢٠١١ م ، وقد بدأت بمظاهرات سلمية ، سرعان ما قام النظام بقمعها ، ثم قام النظام بتحويلها إلى ثورة مسلحة .

ـ الوضع صعب في سوريا ، والتدخلات الإقليمية والدولية في الحرب السورية عقدت الأزمة ، أليس كذلك يا وليام ؟ سألت شيرين .

ـ في الحقيقة أن نظام بشار الأسد كان آيلاً للسقوط سنة ٢٠١١ م لولا تدخل إيران وحزب الله ثم سوريا ؟

ـ ولماذا يتدخلون .. سوريا ليس فيها بترول مثل العراق ؟

ـ كلٌّ له مطامعه الخاصة ، إيران تسعى لتحقيق حلمها بالوصول إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتحقيق حلمها في تكوين إمبراطورية فارسية تمتد من إيران وتشمل العراق وسوريا ولبنان ، ولذلك قامت في العراق وسوريا بتهجير الملايين من السنة من مناطقهم ، وهي تسعى حالياً لجعل السنة أقلية في سوريا بعدما كانوا يمثلون ٨٠ ٪ من سكان سوريا ..

ـ وماذا عن روسيا ؟

ـ روسيا أيضاً لها مطامعها القديمة في البحر الأبيض المتوسط ، ولا شك أنها الآن قوة احتلال ، فسوريا الآن أرض محتلة من الجيش الروسي ، والحرس الثوري الإيراني وعناصر حزب الله اللبناني والميليشيات الشيعية العراقية التي تعتبر امتداداً للحرس الثوري ..

ـ وماذا عن الموقف الأمريكي ؟

ـ أمريكا لها وجودها القوي في العراق ، وهي تدعم روسيا وإيران .

ـ كيف تدعمها ومواقفها المعلنة ضد التدخل الروسي والإيراني ؟

ـ هذا فقط في الظاهر والعلن ، أما في السر فإنها تقف بقوة ضد تسليح المعارضة السورية ، وخاصة بالأسلحة الثقيلة ومضادات الطائرات .. والعالم كله كان يشاهد الموقف الأمريكي الصامت أمام المجازر التي تقوم بها الطائرات الروسية ضد المدنيين والأطفال والنساء في حلب .. وهي تشاهد ما تفعله الميليشيات الشيعية

وعناصر حزب الله من قتل للأطفال والنساء والشيوخ الذين حاولوا الخروج من حلب ...

دمشق ـ سوريا

مـع شـروق الـشمس كـانوا قـد تجـاوزوا الحـدود العراقيـة الـسورية ، وكانت حالتهم النفسية سيئة ، ولكنهم بدأوا في تجاوز أثر مأساة ليلة أمس.

ـ ماذا تقرئين يا شيرين ؟ سألت روناك .

ـ ترجمـة لروايـة (فوضـى الحـواس) لأحـلام مـستغانمي .. هـذه الروايـة كانت تباع كما تقول الكاتبة في صيدلية في شارع الحمراء في بيروت إلى جانب كتب الحمية وعلاج السكري وأمراض القلب والشرايين .

ـ إذاً أنت تؤمنين بالتداوي بقراءة الرواية ؟!

ـ نعم القراءة علاج ، وقد صدر في باريس كتاب يضم مائة عنوان لروايات عالمية مقسمة حسب احتياجات كل حالة نفسية يمر بها القارئ .

ـ أما أنا فإني أعتقد أن العلاج يكون بالكتابة ، وقد عزمت على كتابة رواية تسجل أحداث مغامرتنا .. الكتابة تنفيس عن المشاعر المكبوتة وتفريغ لما في النفوس من هموم على الورق ولذلك فهي تساعد في التخفيف من الآلام الجسمية والنفسية .

تلقى وليام اتصالاً من رؤسائه يطلبون منه التوجه إلى دمشق حيث وردت إليهم معلومات استخبارية تفيد بعثورهم على السيارة التي تحمل القنبلتين النوويتين ، وهي متجهة حالياً إلى دمشق ، استطاع وليام وشيرين دخول دمشق في سيارة إسعاف تابعة للأمم المتحدة .. في السيارة تحدثت الممرضة السورية إيمان عن المآسي التي شاهدتها في الحرب في سوريا والمجازر التي يقوم بها نظام بشَّار الأسد ضد الشعب السوري .. وكان أفظعها مجزرة الغوطة التي استخدم فيها بشار الغازات الكيماوية السامة ضد الأطفال والنساء والشباب والشيوخ وراح ضحيتها أكثر من ألف وأربعمائة برئ .. إضافة إلى عشرات المجازر التي قام بها النظام ضد الشعب السوري .. وأكملت إيمان حديثها :

ـــ للأسف أن العالم يقف متفرّجاً والشعب السوري يتعرض للإبادة والتهجير وتدمير مدنه .. لقد فاق بشار في جرائمه نيرون ، وأخذت تروي لهم قصصاً لمآسي النساء وخاصة حالات الاغتصاب والتعذيب وهي بالآلاف .. إن جيش بشار وشبيحته يستخدمون الاغتصاب للنساء كسلاح ضد الشعب وضد الثوار لمعاقبتهم .. في إحدى المرات قاموا باغتصاب فتيات قاصرات أمام والدهن ، وحينما حاول إنقاذهن قتلوه ، وبعد ذلك أجهزوا على الفتيات أمام الملأ ، وحسب التقارير وحسب أقوال الشهود وتقارير جماعات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام فإن السوريات يتعرضن لاغتصاب جماعي أو الاعتداء كتكتيك حربي ..

إيمان قالت إنها من حي بابا عمرو في مدينة حمص ، وقد كانت شاهدة على التدمير والإبادة التي قام بها جيش وشبيحة بشار ، وهو أضعاف ما ارتكبه والده حافظ الأسد في حماة سنة ١٩٨٢ م حيث قتل حوالي أربعين ألفاً في عدة أيام .. إن ضحايا هذه الحرب المدمرة تجاوز خمسمائة ألف شخص ومئات الآلاف من الجرحى ومئات الآلاف من المعتقلين وأكثر من عشرة ملايين مهجَّرين من بيوتهم ..

ودخلوا إلى أحد المقاهي .. كانت المقاعد فاخرة والإضاءة تزيد المكان جمالاً وأناقة ، بينما كانت أحاديث الحرب والمعارك هي المهيمنة ، وزاد حماس الجميع للكلام حين ذكر لهم وليام أنه يعمل صحفياً .

اقتربت منه فتاة كانت تلبس بنطلون جينز ضيقاً وبلوزة ضيقة وعرَّفت نفسها بأنها مها وهي تعمل صحفية في صحيفة موالية للنظام ، وقالت له :

ـ إن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم معارضة هم مجموعة من المتطرفين والمتشددين الذين يريدون لسوريا أن تعيش في الظلام .. إنهم لا يحترمون المرأة .. انظر كيف تعامل داعش المرأة .. إنهم يغتصبون النساء ويبيعونهن خاصة إذا كانت مسيحية أو من الأقليات .

ـ هل أنت من دمشق ؟ سألتها شيرين .

ـ لا .. أنا من اللاذقية عروس الساحل السوري على البحر الأبيض المتوسط ، ومن أسرة علوية ، وزوجي سُنّي .. قبل الحرب لم تكن هذه التسميات الطائفية ظاهرةً أو ذات أهمية .

ـ سمعنا أن النظام يسعى لإقامة دولة علوية في الساحل السوري . سأل وليام .

ـ تقسيم سوريا إلى دويلات طائفية صغيرة هو مخطط إسرائيلي .. تسعى إسرائيل من ورائه إلى تعميق سيطرتها على حدودها ولا يبقى هناك جيش قوي قادر على تهديدها .

انتقل وليام وشيرين إلى حي جوبر ، وهو أحد الأحياء الذي تسيطر عليه المعارضة السورية ، وشاهدا آثار الدمار الذي طال أحياء دمشق ومبانيها نتيجة القصف المتبادل والصواريخ التي كانت طائرات النظام تقصف بها أحياء دمشق التي تسيطر عليها المعارضة .

استوقفت سيارتَهم مجموعةٌ من السوريين وطلبوا منهم نقل ضحية مصاب نتيجة قصف من جيش النظام ، ونقلوه إلى ما يشبه المستشفى الذي يقع تحت سيطرة الجيش السوري الحر .. كان المكان يفتقر إلى الكثير من التجهيزات الطبية ، والمرضى في الغرف والطرقات ، وأصوات الأطفال والنساء تتعالى من الآلام ...

التقى وليام وشيرين في المستشفى بالرائد سعيد ، وهو أحد قادة الجيش الحر ، الذي كان يتماثل للشفاء من إصابة ، وسأله وليام عن أهداف الثورة ولماذا اشتعلت عام ٢٠١١ م ؟

ـ منذ مجيء حافظ الأسد إلى الحكم سنة ١٩٧٠ م وهو يحكم سوريا حكماً طائفياً يعتمد على طائفته العلوية ، وقام بتهميش الغالبية السنية ، وهي تمثل أكثر من ٧٥ ٪ من سكان سوريا .. وبعد قيام الثورة الإسلامية في إيران ومجيء الخميني أصبح هناك تحالفٌ قويٌّ بين النظامين ، وزادت المأساة بعد قيام حافظ الأسد بمجزرة حماة .. وأصبحت سوريا تُحكَم حكماً دكتاتورياً مطلقاً ، وزاد النفوذ الإيراني في سوريا حتى ظهر أن هناك مخططاً لتشييع السوريين على يد هشام بخيتار .. ولذلك قام الشعب السوري بثورته التي طالت على مدى سنوات ، وهي من أعظم ثورات الشعوب في العالم ، وسوف يتحقق النصر لنا مهما طالت السنون ..

ـ ولكن الدول الغربية وإسرائيل وروسيا وإيران لن تسمح بانتصار ثورتكم ؛ فهي تعتبر أنكم متشددون إسلاميون .

ـ روسيا وأمريكا والدول الغربية لها حساباتها الخاصة ؛ فهي تسعى لأن تطول الحرب على مدى عشرات السنين وتتحول إلى صراع سُني شيعي بين إيران ودول الخليج ، وتستنزف خلالها أموال النفط الخليجية والعراقية والإيرانية ، وتذهب إلى خزائن أمريكا وروسيا والدول الغربية لتسديد فواتير صفقات الأسلحة الضخمة ومشاريع إعادة إعمار ما دمرته الحروب في العراق وسوريا واليمن وإيران والخليج .. إن على إيران ودول الخليج العربي أن تفهم أن هذه لعبة الدول الكبرى ، وأنها لن تسمح لأحد بالانتصار فيها ، وأنها تريد

استمرار هذه المحرقة لسنوات طويلة تماماً كما عملت أمريكا في الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات وتوقفت الحرب بعد إدراك إيران أبعاد المخطط الأمريكي لإطالة الحرب .. توقفت الحرب بعد مقتل مليون عراقي ومليون إيراني .. لم يكن هناك منتصر .. الكل خاسر ..

علق وليام على كلام الرائد سعيد بقوله :

ـ هنري كيسنجر يقول : إن الذي لا يسمع طبول الحرب العالمية الثالثة تقرع لا بد أن يكون مصاباً بالصمم . إنه يرى أن الحرب قادمة والصراع سوف يكون على احتلال المنطقة بعد إضعافها من جانب أمريكا والدول الغربية وإسرائيل من جهة في مواجهة روسيا والصين وإيران .. وهو يرى أن أمريكا ستنتصر في النهاية ، وأن ما يجري الآن في الشرق الأوسط لا يعدو أن يكون تمهيداً للحرب العالمية الثالثة ..

ـ كل هذا محتمل والعرب غائبون ولا يعرفون ما يُخطَّط لهم .. الجامعة العربية لا دور لها وعاجزة ، ومجلس التعاون الخليجي بحاجة إلى أن يكون أكثر فعالية .. العرب ليس لديهم خيار إما الاتحاد أو الفناء .. أتمنى أن يكون للعرب ولمجلس التعاون الخليجي وزير خارجية يتحدث باسم جميع الدول ومفوض للشئون الدفاعية والأمنية .. كما هو الشأن في دول الاتحاد الأوربي .. حينها ستكون كلمة العرب واحدة ، وسيكون موقفهم أقوى تجاه أمريكا وروسيا والدول الغربية ، وخاصة إذا دخلوا في حلف مع الدول الإسلامية مثل تركيا وباكستان وإندونيسيا ..

ـ إن روسيا تريد إعادة أمجادها السابقة وهي الآن في حرب باردة مع الغرب منذ أزمتها مع أوكرانيا . علق وليام على كلام الرائد سعيد ..

ـ نحن ندرك تماماً مخططات روسيا ولا تنسى أن لديهم قاعدة كبيرة على الساحل السوري وهي تشارك بقصف طائراتها للمعارضين لنظام بشار الأسد ، وللأبرياء وللمستشفيات والمساجد ، وخاصة في حلب .. جرائم روسيا ضد الشعب السوري لا يمكن أن تُنسى ، ومن المستغرب أن نلاحظ صمت العرب على هذه المجازر التي تقوم بها روسيا وإيران ضد الشعب السوري .

تلقى وليام اتصالاً من رئيسه وأخبره بأن عملاء CIA نجحوا في تعقب السيارة ، وهم يرتبون لعملية يقودها وليام لتدخل كوماندوز للسيطرة على السيارة ونقل حمولتها إلى الأسطول الأمريكي الخامس في البحر الأبيض المتوسط ..

القدس ـ فلسطين المحتلة

على أبواب المسجد الأقصى وقفت امرأة فلسطينية في الخمسين من عمرها تشتكي إلى قناة فضائية مما يعانيه العرب في ظل الاحتلال وتسأل :

ـ أين العرب ؟! أين المسلمون ؟! .. إذا كانوا غير قادرين على تحرير القدس من الاحتلال اليهودي فيجب عليهم دعم صمود العرب مادياً ومعنوياً ..

ـ ماذا تريدين من العرب ؟ سألتها مذيعة القناة .

ـ نريد منهم الضغط على إسرائيل لوقف بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة وإخلاء سبيل آلاف السجناء الذين يعانون من القهر والإذلال في سجون الاحتلال .

توجهت مذيعة القناة التليفزيونية إلى أحد الرجال الفلسطينيين الذين يتولون مهمة حراسة المسجد الأقصى وسألته :

ـ متى سينتهي هذا الصراع بينكم وبين اليهود في القدس ؟

ـ القدس أرض محتلة ، وكل قرارات الأمم المتحدة تدعو إلى انسحاب الجيش الإسرائيلي منها . . منذ احتلال اليهود للقدس في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ م والصراع بين العرب واليهود على الأماكن المقدسة في القدس لا يتوقف ، وقد شكل العرب جماعات لحماية المسجد الأقصى من هجمات المتطرفين اليهود الذين يحلمون بهدم المسجد وإقامة هيكل سليمان ، وما زالت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تُضيّق على سكان القدس من العرب ولا تسمح لهم بالبناء وتسمح لمئات الآلاف من المستوطنين اليهود ببناء مساكن لهم في مخالفة صريحة لقرارات الأمم المتحدة ...

ـ في القدس مقدسات إسلامية ومسيحية ويهودية ، هل تؤيدون جعل المدينة مدينة دولية وغير خاضعة لحكم العرب أو اليهود ؟

ـ ظلت القدس تحت حكم العرب مئات السنين ، وكانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة حسنة ، وحينما دخل الصليبيون إلى

القدس قتلوا مائة ألف شخص من أهلها ولم يفرقوا بين مسلم أو يهودي حتى طردهم منها صلاح الدين الأيوبي ، وبعد مئات السنين حين دخل الجنرال غورو دمشق ذهب إلى قبر صلاح الدين وقال : ها قد عدنا يا صلاح ، وعندما دخل الجنرال النبي القدس قال مقولته : الآن انتهت الحروب الصليبية ، إن الغرب يفكر بعقلية الحرب الدينية المقدسة .

ـ ولكن صراعكم الآن مع اليهود وليس مع الغرب .

ـ أمريكا هي أكبر داعم لإسرائيل بالمال والسلاح ومن قبلها فرنسا وبريطانيا ..

أمام شاشة التلفزيون وقف عزرا يتابع الأخبار مع زوجته :

ـ أخبار عاجلة عن تعقب جهاز المخابرات الإسرائيلي الموساد والمخابرات الأمريكية لسيارة تحمل رؤوساً نووية إيرانية ..

ـ السيارة التي تحمل قنابل نووية موجودة في سوريا .

ـ السيارة في طريقها إلى حزب الله في لبنان خلال ساعات .

ـ أقمار التجسس الأمريكية والإسرائيلية ترصد الطريق الدولي بين دمشق وبيروت .

ـ فرق كوماندوز أمريكية وإسرائيلية على أهبة الاستعداد للتدخل في سوريا ولبنان من أجل مصادرة الرؤوس النووية .

ـ الدفاع المدني الإسرائيلي يعلن عن خطط لتوزيع واقيات من الهجوم النووي على المواطنين .

ـ وزير الدفاع الإسرائيلي يعلن عن جاهزية جيش الدفاع الإسرائيلي لاجتياح سوريا ولبنان خلال ساعات إذا تعرض أمن إسرائيل للخطر .

واجهت سارة زوجها عزرا بسيل من الأسئلة وهي خائفة :

ـ عـزرا .. هـل تـصدق هـذه الأخبـار ؟ هـل يعقـل أن نكـون تحـت تهديـد نووي؟ لقد قالوا لنا إننا سنكون تحت حماية جيش الدفاع .

ـ أنا أثق في جيشنا ، وأثق أن أمريكا والعالم كله وأجهزة الاستخبارات العالمية تعمل من أجل أمننا .

ـ ولكن هناك احتمال أن يقع هذا السلاح في أيدي جماعات متطرفة وإرهابية معادية لإسرائيل .

أشعل عزرا سيجارته ونفخ هواءها عالياً وراح يحدق من نافذة غرفته إلى البعيد .

ـ لن نعيش بأمان إلا إذا تخلصنا من كل هؤلاء المتطرفين المسلمين وجاء جيل غير متعصب يؤمن بالتسامح والسلام معنا .. هذا هو هدفنا يا سارة ..

ـ لكنني أرى أن هؤلاء المتشددين يزداد عددهم كل يوم .. لماذا لماذا يا عزرا ؟

ـ هناك قنوات فضائية كثيرة تنشر أفلاماً وبرامج تثير ملايين العرب ضد اليهود .

ـ لا بد من إعطاء الفلسطينيين دولتهم من أجل أن ينتهي هذا الصراع .

ـ وطبعاً ستبقى القدس عاصمة أبدية لإسرائيل .

ـ حتى لو سمحنا للفلسطينيين بإقامة دولتهم فلن ينتهي الصراع .

ـ نعم ستبقى القدس هي مفتاح الحرب والسلام .. القدس .. القدس .. الصراع كله حول القدس منذ آلاف السنين .

البنتاجون ـ واشنطن

حين وصلت الأوامر إلى وليام وفريقه بالاستعداد للسفر كان يتوقع ذلك وخاصة أنه كان يستمع إلى كل ما نقلته وكالات الأخبار العالمية ، ومن ضمنها تأكيد وزير الدفاع الأمريكي للأخبار التي تناقلتها وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية حول تهريب رؤوس نووية إيرانية إلى سوريا عبر العراق .

ـ قناة CNN تعلن أن المخابرات الأمريكية CIA والموساد يتعقبان عبر عملائهما وأقمار التجسس السيارة التي تحمل الرؤوس النووية .

ـ وزير خارجية إيران ينفي مسئولية بلاده عن تهريب القنابل النووية ، ويؤكد التزام إيران باتفاقها بتدمير كل معداتها وقنابلها النووية .

ـ وكالات الأنباء العالمية تتناقل أخباراً عن مسئولية فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني عن تهريب الأسلحة النووية من إيران .

ـ القنوات الفضائية الأمريكية والإسرائيلية تتداول أخباراً حول وصول الرؤوس النووية إلى بيروت .

ـ مدير المخابرات المركزية الأمريكية يؤكد أنه قد وصلت للوكالة معلومات مؤكَّدة عن وصول الرؤوس النووية الإيرانية إلى يد حزب الله ، وأنها موجودة في الضاحية الجنوبية في بيروت ، وأنه تم تهريبها عبر الأنفاق السرية بين سوريا ولبنان ..

وأخيراً وصلت الأوامر إلى وليام وفريقه بالتوجه إلى لبنان .. كان يفكر في هذه المهمة الصعبة ؛ فالطريق من دمشق إلى بيروت يمر بعشرات الكمائن الأمنية التابعة لنظام بشار الأسد وميليشيا حزب الله ، ولكن الاستخبارات الأمريكية رتبت أمر تهريبهم إلى لبنان بالاتفاق مع مهربين مقابل مبالغ طائلة .

في الطريق تحدث وليام مع زعيم عصابة التهريب :

ـ ماذا تهرّبون إلى لبنان ؟

ـ كل شيء يمكن أن يخطر على بالك ؛ نهرب البشر والأسلحة من الكلاشنكوف إلى الصواريخ ...

ـ ولكن كيف لا يتم اكتشافكم ؟

ـ غالباً ما تتم عمليات التهريب بعلم الأجهزة الأمنية ، ولكن لأننا ندفع مبالغ طائلة لرؤساء الأجهزة الأمنية ، فإنهم يغضون الطرف عن عملياتنا .. أحياناً إذا عَلِمَت الاستخبارات الإسرائيلية عن تهريب أسلحة ثقيلة أو صواريخ إلى لبنان فإنها تقوم بقصفها وقتل المهربين .

ـ ولذلك تقومون بعملياتكم في الليل ؟ سألته شيرين .

ـ نعم .. والمسافة ليست بعيدة .. خلال ساعات سوف تكونون في لبنان .. أشعل سيجارة حشيش وعرض عليهما سيجارة ، ونظر إلى شيرين نظرة ذات مغزى ، وشكراه معتذرين بأنهما لم يجرّباه من قبل ..

ـ في زمن الحروب يزدهر نشاط عصابات التهريب .. هكذا علَّقت شيرين على كلامه .

ـ في زمن الحرب الأهلية اللبنانية كان سوق التهريب مزدهراً إلى لبنان .. والآن يزدهر سوق التهريب إلى سوريا في ظل هذه الحرب التي لا نعلم متى تنتهي ... أخذ يتمايل ويُغنّي على أنغام فيروز وهي تغني :

رجعت الشتوية

ظل افتكر في ..... ظل افتكر في

رجعت الشتوية

يا حبيبي .. الهوى مشاوير ..... وقصص الهوى مثل العصافير

لا تحزن يا حبيبي إذا طارت العصافير

وغنية منسية في دراج السهرية

رجعت الشتوية ..... رجعت الشتوية

بیروت ـ لبنان

استطاع وليام وشيرين الوصول إلى بيروت خلال ساعات ، وأصبحت مهمتهم الأساسية هي العثور على القنابل النووية ، ويعاونهما في ذلك مئات الجواسيس والعملاء الذين انطلقوا يجمعون المعلومات ويحللون الاتصالات .

في أحد مقاهي شارع الحمراء وسط بيروت جلس وليام وشيرين يتابعان الأحداث من القنوات الفضائية ..

ـ حزب الله يُصدر بياناً يُعلن فيه امتلاكه السلاح النووي ، ويقول إنه لن يستخدمه ضد إسرائيل إلا في حالة الدفاع عن النفس .

ـ رئيس الوزراء الإسرائيلي يُحمّل إيران مسئولية أي هجوم نووي تتعرض له إسرائيل ، وأن رد إسرائيل سيكون بقصف طهران بالرؤوس النووية .

ـ قائد فيلق القدس في الحرس الجمهوري الإيراني يهدد بالرد بحرق إسرائيل بالصواريخ الإيرانية إذا بدأت إسرائيل أي مغامرة ضد إيران .

ـ الإعلان في واشنطن عن قمة عاجلة في بروكسل لزعماء دول حلف الناتو بحضور رئيس وزراء إسرائيل .

ـ الرئيس الروسي يحذّر الغرب من أي تدخل مباشر في الشرق الأوسط، وأن ذلك يهدد المصالح الحيوية لروسيا في المنطقة ..

ـ وكالات الأنباء العالمية تتناقل أخباراً عن توجه سفن الأسطول الخامس الأمريكي إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ..

في أحد أركان المقهى استمع وليام إلى حوار بين شابين ؛ أحدهما مؤيد لحزب الله ، والآخر معارضٌ له من طرابلس ، علق المعارض على الأخبار قائلاً :

ـ ألن تنتهي مغامرات حزب الله وجلبه الحروب إلى بلدنا الصغير ؟

ـ لا تنسَ أن حزب الله استطاع أن يهزم إسرائيل ، ويحبس أنفاس الجيش الإسرائيلي العتيد ٣٣ يوماً في حرب تموز ٢٠٠٦ م .

ـــ ولكنه عاد ووجَّه سلاحه إلى اللبنانيين في ٧ أيار ، ووجَّهه لقتال السوريين في ثورتهم ضد الأسد .

ـ سلاح حزب الله يدعم جبهة الممانعة والتصدي لإسرائيل .

ـ ولكنكم عملاء لإيران التي تمدكم بالمال والسلاح .

ـ نحن نعترف بفضل إيران علينا ودعمها لنا بالمال والسلاح ، ولكننا لسنا عملاء لها ، نحن لنا قرارنا المستقل ، إن إيران تمد حماس بالمال والسلاح فهل يعني ذلك أن حماساً أيضاً عميلة لإيران ؟!

ـ هذه سياسة إيران ، دعم أتباعها بالمال والسلاح في الدول العربية حتى يتحكموا في مفاصل السلطة ، وهذا واضح من خلال دعمها لكم وللحوثيين في اليمن ، والجماعات الشيعية في العراق ، والعلويين في سوريا .

ـ إيران تدعم المستضعفين ، ولها حساباتها السياسية الخاصة بها ؛ فهي دولة قوية اقتصادياً وعسكرياً ، ومن حقها أن يكون لها مناطق نفوذ .

ـ وأيضاً ليت دول الخليج العربي تدعم مالياً وعسكرياً المستضعفين في إيران من عرب الأحواز والسُّنَّة في بلوشستان ، والأكراد في شمال إيران .. لو فعل العرب ذلك لكفت إيران عن تدخلها في الدول العربية .

ـــ لا تنسَ أن السعودية ودول الخليج كانت تدعم رفيق الحريري والمعارضة السورية ، وشكَّلت تحالفاً عسكرياً لمحاربة الحوثيين وأتباع علي عبد الله صالح ..

ـ إن الحلَّ لكل أزمات العرب وإيران هو أن تتفق إيران والسعودية ودول الخليج العربية على وقف الحروب الطائفية في المنطقة .. إن أمريكا والغرب وروسيا وإسرائيل هي المستفيد الأكبر من هذه الحروب ؛ فاقتصادها يزدهر ومبيعات أسلحتها تتضاعف ، وأموال العرب وإيران تذهب إلى جيوبهم .

ـ نعم .. ولذلك يحرصون على استمرار الحروب في المنطقة باستمرار .

ـ ليت إيران تفهم ذلك جيداً فتوقف لعبتها الخطرة .

ـ ولماذا لا تكون المبادرة من الدول الخليجية ؟ وهل تظن أن الدول الكبرى ستسمح بإنهاء اللعبة ؟

ـ لا أظن ذلك .. فلعبة الحرب أصبحت لعبة الأمم في منطقتنا .

طلب وليام كأسين من عصير البرتقال ، بينما راحت شيرين تفكر بصمت .. ترى هل نحن مُقبلون على حرب نووية قادمة ؟ ما هذا الجنون الذي لا يمكن لأحد أن يتصور مخاطره على المنطقة والعالم ؟ .. ولكنها وقفت تشاهد مع الجميع قرارات اجتماع قادة دول حلف شمال الأطلسي (الناتو) وبحضور رئيس الوزراء الإسرائيلي ، والرئيس الأمريكي يُعلن أن الحلف قرر ما يلي :

[١] تشكيل تحالف عسكري من دول الناتو وإسرائيل للقيام بغزو عسكري للبنان .

[٢] إعلان لبنان منطقة عمليات يحظر فيها الطيران المدني والعسكري .

[٣] توجيه تحذير إلى كل من روسيا وإيران من خطورة أي تدخل عسكري من جانبهما ؛ لأن ذلك يمثل تهديداً للأمن والسلام العالمي .

وكالات الأنباء العالمية ومحطات التلفزة تتناقل أنباء عن موجة نزوح شاملة من جنوب لبنان والضاحية الجنوبية بعد إعلان وزير الدفاع الإسرائيلي عن وجوب إخلاء هذه المناطق خلال ست ساعات .

ـ أخبار عن قيام حزب الله ومجموعات المقاومة بنشر وتفعيل شبكة الصواريخ الموجهة نحو إسرائيل .

ـ وزير الدفاع الأمريكي يعطي أوامره بقصف جنوب لبنان بطائرات B52 التي تحمل قنابل MOB القادرة على تدمير التحصينات إلى مستوى أكثر من ٦٠ متراً تحت الأرض .

ـ وكالات الأنباء العالمية تتابع عمليات القصف للطائرات الأمريكية والغربية والإسرائيلية لجنوب لبنان بالتزامن مع عمليات إنزال جوية وبحرية وبرية في بيروت والجنوب اللبناني .

التقى وليام مع عميل لبناني يشغل مركزاً كبيراً في حزب الله ، وقد أمدَّهم بمعلومات دقيقة عن موقع تخزين السلاح النووي في الضاحية الجنوبية لبيروت التي أصبحت مهجورة تماماً بسبب تهديدات إسرائيل والتحالف الغربي بقصفها ، جهزت قوة عسكرية كبيرة لاقتحام الموقع .. أثناء سير وليام وشيرين في الضاحية .. كانت الشوارع مليئة بشعارات وأعلام حزب الله الصفراء ، وصور زعيم الحزب ومرشد الثورة الإسلامية في إيران ، وصور آية الله الخميني ، وشعارات الموت لأمريكا ، والموت لإسرائيل ، وعبارات التحدي للغرب .. وحين وصلا إلى الموقع المحدد وهو بيت لأحد أعضاء حزب الله تم تفجير بوابة البيت الحديدية ، وتم اقتحامه بكل سهولة ؛ لأنه كان فارغاً من أي حراسة أو مسلحين ، وتم تفتيش الغرف والقبو أسفل المنزل ، ولم يجدوا شيئاً ، وطلب وليام تشغيل جهاز الكشف عن المواد النووية ، والذي أشار بشكل قاطع إلى وجودها في الموقع .. طلب وليام إعادة تفتيش المنزل مرة ثانية .. لفت نظر وليام طبقة البلاط الجديدة التي توجد في أرضية القبو ، وتحدث إلى شيرين قائلاً :

ـ إنني أظن أن الكنز يقع تحتنا .

ـ ماذا تقصد يا وليام ؟

ـ أقصد أن قدميك الآن تدوسان على قنبلة نووية .

أحست شيرين بقشعريرة تسري في بدنها من كلامه ، فقالت له :

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ سوف ترين بعد قليل .

استدعى وليام الخبراء وأمرهم بتكسير أرضية القبو .. وبعد دقائق اكتشفوا وجود غطاء لفتحه .. قام الفنيّون بمعالجة الفتحة وتكشَّفت عن سلم يؤدي إلى قبو سري .. سار وليام وشيرين ومعهم مجموعة حراسة من الكوماندوز لاستطلاع المكان ودخول الغرف خوفاً من وجود مسلحين أو متفجرات فيها ، حين دخلوا إحدى الغرف وجدوا صندوقين خشبيين مثبتين بإحكام على قاعدة أسمنتية .. لفت نظر شيرين الكتابات الخارجية على الصندوقين وكانت باللغة الفارسية ، سألها وليام :

ـ ما هذه الكتابات يا شيرين ؟

ـ هذه تحذيرات من الاقتراب بدعوى الخطر .. وحين اقتربت شيرين ووضعت يدها على أحد الصندوقين أصيبت برعشة ورهبة ، ونظرت إلى وليام وسألته :

ـ هل تعتقد أننا الآن أمام المارد النووي الذي كنا نطارده منذ مدة ؟

ـ ليس لديَّ شك في ذلك سوف يتبين لنا ذلك بعد دقائق ، وأصدر أوامره للمختصين بفتح الصندوقين .. وأخيراً حين فتح الصندوق الأول ظهرت أمامهما القنبلة النووية بشكلها البيضاوي مثبتة بإحكام في الصندوق ، ونظر كل من وليام وشيرين إلى بعضهما وعلى وجهيهما علامات الفرح والذهول ..

ـ الآن سوف ننعم بالسلام يا شيرين .

ـ ولكن هذه مجرد قنبلة واحدة ، وهناك ترسانة من القنابل النووية لدى أمريكا وإسرائيل وروسيا وغيرهم ..

ـ ولكن هذه في يد إرهابيين يمكنها أن تقتل مئات الآلاف من الأبرياء .

ـ وما فعلته أمريكا في العراق وروسيا في سوريا .. أليس هذا إرهاباً ؟ أليس قصف الفلوجة بقنابل اليورانيوم المنضب عملاً إرهابياً ؟!!

ـ شيرين .. ماذا دهاك ؟ هذه هي الحروب ..

سيدي .. سيدي ..

قطع صوت رئيس فريق الكوماندوز حديثهما ، وهو يقول :

ـ سيدي الصندوق الثاني فارغ !!

نظر وليام بذهول إلى الصندوق الفارغ ، وشاهد الأحزمة الحديدية المقطعة ، وتأكد له أنه تم أخذ القنبلة إلى مكان آخر .. كانت شيرين مذهولة أيضاً وراحت تسأل وليام :

ـ لماذا لم يأخذوا القنبلة مع صندوقها ؟ لماذا أُخرجت من الصندوق ؟!!

ـ سؤالك يثير فيَّ أسوء وساوس .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد أنه عادة لا تخرج القنبلة من صندوقها إلا .. إلا إذا أرادوا حملها في طائرة قاذفة ، أو تحميلها على الصاروخ القادر على حمل رأس نووي ..

ـ من المستحيل إخراجها مع الصاروخ من هذا المكان .. ردت شيرين .

ـ هذا ما يحيرني ، وأخذ يجول ببصره في أرجاء جدران المكان ، وطلب جهاز التصوير بالأشعة ، وطلب من الفنيين تصويراً بالأشعة الليزرية التي تكشف عما وراء الجدران ، وبعد ساعتين وقف مذهولاً وهو يرى أن نتائج التصوير قد كشفت وجود نفق خلف أحد الجدران وبسرعة أمر بهدم الجدار ليفاجأ بوجود نفق طويل تحت الأرض متصل بعدد من الأنفاق ، كان حزب الله قد أنشأ سلسلة

كبيرة من الأنفاق في بيروت ، وفي جنوب لبنان ، وكانت مفاجئة للجيش الإسرائيلي في حرب تموز ٢٠٠٦ م .. حيث كان مسلحو حزب الله يقومون بعملياتهم ضد المدرعات والدبابات الإسرائيلية ثم يختفون فيها ، كما يستخدمونها لتخزين أسلحتهم .

سار وليام وشيرين في النفق الطويل المظلم ومعهم فرقة الكوماندوز .. وأخيراً وصلوا إلى آخر النفق الذي أدى بهم إلى مزرعة تطل على البحر الأبيض المتوسط .. قامت فرقة الكوماندوز بتفتيش دقيق للمزرعة على مدى ساعات ، وعثروا على مجموعة من القوارب والذخائر الحربية ، ولكنهم لم يعثروا على أي أثر للقنبلة .. اتصل وليام برؤسائه وأخبرهم بما حصل وأنه يظن أن القنبلة قد تم شحنها بحراً .

تقاطر آلاف المراسلين الصحفيين والقنوات الفضائية على بيروت لتغطية أخبار الحرب على الأرض اللبنانية .

جلس وليام يتابع من شاشة التلفزيون في غرفته بالفندق ردود الأفعال العالمية على تطورات الحرب وأخبار العثور على القنبلة النووية في بيروت ، وبدأت بعض القنوات الأمريكية والإسرائيلية في نشر أخبار الإشاعات عن فقد قنبلة نووية ، وكانت عناوين القنوات التي تُكتب بالخط الأحمر مسبوقة بكلمة عاجل ...

- عاجل : رأس نووي قبالة السواحل الإسرائيلية .
- عاجل : رعب في تل أبيب من قصف نووي .
- عاجل : منظمة سورية سرية تهدد بقصف القاعدة العسكرية الروسية في طرطوس واللاذقية انتقاماً من المجازر الروسية ضد الشعب السوري .

ـــ عاجل : إشاعات توجُّه وصول السفينة المحمَّلة برأس نووي إلى الشواطئ الشرقية للولايات المتحدة الأمريكية .

ـــ استنفار للأساطيل البحرية الأمريكية والإسرائيلية والغربية والروسية حول العالم بحثاً عن السفينة .

ـ قنوات فضائية تنشر تقريراً عن تطوير إيران لمنصات إطلاق صواريخ قادرة على حمل رأس نووي من فوق سفينة بحرية .

ـ عاجل : رئيس وزراء إسرائيل يدعو الشعب الإسرائيلي إلى الاطمئنان وعدم تصديق الإشاعات .

ـــ عاجل : سقوط عشرات الصواريخ على تل أبيب وحيفا ، ومقتل عشرات الإسرائيليين .

في بهو الفندق جلس عشرات الصحفيين والإعلاميين يتعارفون ويتبادلون أحدث الأخبار التي سمعوها .

ـــ هل سمعت أحدث الأخبار عن ظهور الإمام المهدي ؟ سأل أحد الإعلاميين زميلاً له .

ـ سمعت والجميع من السنة والشيعة ينتظر خروجه .. إن المعارك هنا لها بعد أيديولوجي قوي ، وهناك أحاديث يتداولها الفريقان ويسقطونها على الواقع .

ـ كل فريق يعتقد أن الغلبة له ، وأن المهدي معه ، وأنهم سينتصرون في المعركة الفاصلة التي ستقع في الشام .

ـ تقصد معركة هرمجدون ؟

ـ نعم .. وهناك عدد كبير من الغربيين واليهود يؤمنون بها ويؤمنون بظهور المسيح .

ـ لقد سمعت أن الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان كان من المؤمنين بذلك ، وأنه قال مرة إنه يعتقد أن المسيح واقف خلف الباب أي أنه قريب الظهور .

ـ وكذلك اليهود يعتقدون بظهور المسيح المخلص .

كان الفندق قريباً من منطقة الروشة على البحر ، ولذلك فقد كان مراسلو القنوات التلفزيونية يقفون مقابل صخرة الروشة ليظهر البحر الأبيض المتوسط بأمواجه المتلاطمة كصورة جميلة للبنان الجميل الذي مزقته الحروب المتواصلة والصراعات الطائفية .. كان هدير الطائرات الحربية يملأ الأجواء .

شاب لبناني وقف يتحاور مع زوجته وهو ينظر إلى البحر :

ـ لقد قررت أن أرحل عن هذا البلد .. لقد سئمت من الحروب والفتن .

ـ إلى أين ستذهب ؟ نحن غير مرحَّب بنا لا في البلاد العربية ولا في البلاد الغربية .

ـ لقد اتفقت مع أحد المهربين الذي سيرحل بي عن طريق البحر إلى أوربا .

ـ هؤلاء المهربون لا يمكن الوثوق بهم .. ألست تسمع قصص السفن والقوارب التي تغرق ويموت فيها المهاجرون .

ـ أعرف .. ولكن هذه حياتي ، إمَّا أن أعيش عيشاً كريماً ، أو أموت هنا .

ـ وهل تظن أنك ستعيش عيشاً كريماً في الغرب ؟ إنهم يعاملون العرب معاملة سيئة ، ووسائل الإعلام الغربية تصوّرهم على أنهم وحوش وسفاكو دماء ، ولا يمتُّون بصِلةٍ إلى الحضارة .

ـ وهل تظنين أن ما عملته أمريكا في العراق ، وروسيا في سوريا ، والدول الغربية من جرائم ضد العرب .. هل تظنين أن هذه حضارة ؟ !! .. إن

هذا يذكرني بما قاله العالم فرويد حينما زار أمريكا وسئل عن رأيه فيها ، فقال : أمريكا غلطة كبيرة جداً .

ـ إذاً .. كيف تريد أن تعيش وسط بلادهم ؟!

ـ اسمعي .. أمريكا والغرب هم سبب مشاكلنا .. هم الذين يحتلون بلادنا وينهبون خيراتنا ، ويثيرون الحروب الطائفية بيننا ، ولذلك يجب أن يدفعوا الثمن .. يجب أن يهاجر ملايين العرب ليعيشوا في الغرب .

ـ هذه مسألة حسَّاسة ، ولا يمكن أن يقبل بها الغربيّون .

ـ إذاً عليهم أن يوقفوا تدخلهم في شئوننا .. عليهم أن ينسحبوا من بلادنا ..

ـ وعلى الشعوب الغربية أن تضغط على ساستها لوقف حروبهم في بلادنا ..

ـ ويجب على تركيا أن تفتح حدودها ليتدفق ملايين المهاجرين العرب الذين هُدِّمت بيوتهم ، وشُرِّدوا في المخيمات إلى أوربا .

ـ وسط أصوات المدافع ، وهدير الرصاص ، لا أحد يستمع إلى كلام العقلاء .

ـ هذا غير صحيح ، فالعالم اليوم تحكمه الكلمة ، وستبقى قوة الكلمة أقوى من الرصاصة ، أثر الرصاصة يزول ، لكن الكلمة تبقى خالدة .

ـ العالم ملئ بالشرفاء الذين لا يرضون بالظلم ، ويسعون إلى أن يعمَّ الأمنُ والسلامُ العالمَ ، لا ينبغي علينا أن نيأسَ .. لن نيأس ..

ـ غداً سيكون أجمل .

تل أبيب ـ إسرائيل

وصلت الطائرة التي ركبها وليام وشيرين إلى مطار اللِّد ، وكانت سيارة خاصة بانتظارهما لحظة خروجهما من صالة المطار ، وكان فيها شخصية مهمة من السفارة الأمريكية في تل أبيب .. فتح وليام جهاز الحاسب الآلي المحمول وقرأ عدداً من الرسائل الإلكترونية التي وصلته ، والتي انشغل عن قراءتها في الأيام الماضية بسبب الأحداث المتسارعة التي عايشها ، وقرأ أيضاً بعض رسائل الواتساب التي وصلته ، وكان معظمها أخباراً ومقاطع فيديو عن الحرب الدائرة في الشرق الأوسط .. لفت نظره مقطع فيديو لإسقاط المعارضة السورية طائرة حربية روسية وأَسْر قائدها .

في الفندق جلس وليام ينتظر وصول الأوامر إليه من قادته ، فتح شاشة التلفزيون وأخذ يشاهد مع شيرين فيلم (2001 أوديسا الفضاء) للمخرج العالمي ستانلي كوبريك ، وهو من أفلام الخيال العلمي ، وهو فيلم صُنع بدعم علمي وتقني ومادي سري من وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) لإثارة حماس الرأي العام الأمريكي لتأييد مشاريعها وبرامجها لغزو الفضاء، وبخاصة برنامج أبوللو .

ـ لقد شاهدت فيلم جورج لوكاس (حرب النجوم) .. علقت شيرين بعد انتهاء الفيلم .

ـ هذا رائع .. أجابها وليام وهو يتجه لصنع كوبين من القهوة .

ـ إنني مغرمة منذ صغري بأفلام الخيال العلمي .

ـ هل تعرفين أن قراءة قصص الخيال العلمي دفعت العديد من العلماء الكبار إلى اكتشاف اختراعات كثيرة ؟

ـ هذا صحيح .. ومنهم ستيفن هوكنج مؤلف الكتاب الشهير (مختصر تاريخ الوقت) ، والذي كان يقول إنه كان في سنوات

دراسته الجامعية الأولى يقرأ كتب الخيال العلمي أكثر من قراءته للدروس الجامعية .

ـ سأحدثك يا شيرين عن رأي خطير صرَّح به العالم المتخصص في الرياضيات والكمبيوتر فيرنور فينج في محاضرة ألقاها في مؤتمر عقدته وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عام ١٩٩٣ م ، وقد أعلن أن حقبة سيطرة الإنسان على الأرض شارفت على نهايتها ، وسوف تأتي بعدها مرحلة (مستقبل ما بعد الإنسان) ، وهو يقول إن البشر سيتمكنون من اختراع كمبيوتر يتمتع بقدرة تفوق العقل البشري ، وسوف تنتج كمبيوترات ذات قدرات هائلة ، وتصل في تطورها إلى مرحلة الوعي الذاتي ، وسوف تكون أذكى من البشر ، ولذلك لا نعلم ماذا ستفعل بنا ..!!

ـ أنا أعتقد أن البشر يستحقون ما سيحصل لهم على يد هذه الكمبيوترات .

ـ هناك أشياء مخيفة يا شيرين .. هناك من يقول إن هذه الأجهزة الكمبيوترية سوف تقوم بالحصول على الشفرة السرية لإطلاق الصواريخ النووية التي تكون عادة لدى الرئيس الأمريكي والرئيس الروسي ورؤساء الدول التي لديها سلاح نووي ، وستقوم بتغيير الشفرة السرية ، وترسل تهديداتها إلى البشر بتدميرهم بالأسلحة النووية ..!!

ـ وليام .. هذا شيء مرعب حقاً .. هيا بنا نذهب لنمرح قليلاً في بركة السباحة .. سأذهب إلى غرفتي لألبس ملابس السباحة ..

ـ دقائق وسوف ألحق بك يا شيرين .

كان الجو صافياً والشمس ترسل أشعتها الذهبية .. استلقت شيرين وأخذت تقرأ رواية (رحلة خيالية) ، وهي قصة خيال علمي تحكي قصة مجموعة أطباء يتم تصغيرهم إلى درجة ميكروسكوبية ، ويوضعون في غواصة

صغيرة وتسبح في جسم الإنسان ، وتقوم بإجراء عملية في دماغه .. حين وصل وليام حكت له شيرين قصة الرواية وعلَّقت عليها ..

ـ قصة خيالية .. ولكنها ألهمت العلماء إلى اكتشاف تقنية (النانو) ، وهي من أحدث طرق العلاج وأكثرها تطوراً .

على مقربة منهما جلس موشيه ومردخاي ، وهما صحفيان إسرائيليان ، يتناقشان بقوة حول الحرب والسلام بين إسرائيل والعرب .. قال مردخاي :

ـ إنني أحب بلدي ، وأرغب أن أعيش في سلام مع جيراننا العرب ، ولا أريد أن يُقتل أبنائي في حروب في المستقبل ، ولذلك لا بد أن تنسحب إسرائيل من أراضي الفلسطينيين ، وتسمح لهم بإقامة دولتهم .

رد عليه موشيه :

ـ العرب لا يعرفون السلام .. تاريخهم كله حروب وسفك للدماء .. حتى لو انسحبنا من مدنهم .. سوف يعدون العدة ويتسلحون ويحاربوننا .

ـ حكومات إسرائيل اليمينية وسياسات الاستيطان وبناء المستوطنات تدفع الفلسطينيين والعرب باتجاه العنف والحرب .

ـ ولذلك يجب أن يكون لدى إسرائيل جيش قوي ، ورادع للعرب ، انظر كيف استطعنا أن نقهرهم في غزة ، وفي جنوب لبنان .

ـ هل تقصد جرائم الجيش الإسرائيلي ، وقتل الأطفال والنساء والأبرياء ، وهدم البيوت في غزة ؟!! ، هذه جرائم حرب يا عزيزي ، وعارٌ على إسرائيل ..

ـ والصواريخ التي أطلقوها على إسرائيل ، وقتلت وجرحت أبرياء ، أليست جرائم للفلسطينيين ؟ إن أكثر ما يخيف إسرائيل هو اشتعال الحرب من حدود إسرائيل الشرقية ، وهي جبهة طويلة تمتد

إلى مئات الكيلومترات حيث القدس وتل أبيب وحيفا في مرمى المدفعية والصواريخ .

لم يكد وليام يقضي ليلة هادئة في تل أبيب حتى استيقظ على رنين هاتفه .. كان الاتصال من القيادة :

ـ وليام .. عليك أن تكون مستعداً للذهاب فوراً إلى القاهرة .

ـ وماذا هناك ؟

ـ وصلتنا معلومات عن سفينة إيرانية مشتبه بها بالقرب من الإسكندرية ، وقد تم التنسيق مع الحكومة المصرية بشأن مهمتك ..

حين انتهت المحادثة كانت شيرين تقف إلى جانبه متلهفة لسماع الأخبار الجديدة ، نزع نظارته ووضع طرفها بين شفتيه ونظر إلى شيرين قائلاً :

ـ أخيراً .. سوف تتحقق أمنية كبيرة عندي وهي زيارة مصر ، ورؤية آثار حضارة الفراعنة .

ـ ومتى سنسافر ؟

ـ الآن سنتجه إلى المطار .. جهزي حقيبتك فورا .

ـ كنت أتمنى لو كان بإمكاني زيارة مدينة القدس قبل مغادرة إسرائيل .

ـ يمكنك زيارتها في المستقبل ، وما يدريك ربما يطلبون منا غداً الذهاب إلى القدس .

القاهرة ـ مصر

خلال ساعات كانا قد أخذا مقعدهما في الدرجة الأولى بالطائرة المصرية المتجهة إلى القاهرة .. رحبت بهما مضيفة الطائرة ، وهي فتاة مصرية جميلة ذات شعر أسود ، سألتهما إن كانت هذه هي زيارتهما الأولى لمصر ، فأجابا بالإيجاب ، فتمنت لهما زيارة ممتعة لأم الدنيا .

ـ نحن نسمي مصر أم الدنيا . عقَّبت المضيفة .

ـ ولماذا سميت بهذا الاسم . سألت شيرين .

ـ يقال إن نبي الله نوح بعد الطوفان مدح مصر ، ومدح مَن يسكنها ، وسماها أم البلاد ، وهناك من يقول : سميت بذلك تكريماً للسيدة هاجر زوجة نبي الله إبراهيم التي كانت قبطية من مصر ، وهي أم النبي إسماعيل ، والنبي إبراهيم ولد في العراق ، وعاش في مصر والشام وفي مكة بنى الكعبة .

قامت شيرين بتصفح مجلة وأعجبها مقال عن الأنبياء والرسل الذين عاشوا في مصر ، وعرفت منهم إبراهيم الخليل أبو الأنبياء ، والمسيح عيسى بن مريم الذي جاءت به أمه إلى مصر هاربة من بطش الملك هيرودس، والنبي يوسف الذي تولى منصب عزيز مصر وهو بمثابة رئيس الوزراء ، والتفتت إلى وليام :

ـ صحيح مصر أم الدنيا .

ـ نابليون بونابرت قال عندما احتل مصر : « مصر هي قلب الكرة الأرضية ومن يحتلها يسيطر على العالم كله » ، ولذلك تعرضت للغزاة منذ القدم .

ـ تذكرت أسطورة تحكي عن وجود قبة في مصر مرسوم عليها كل ملوك الأرض ، فإذا تحرك هذا الملك ليهاجم مصر تحركت صورته في القبة ، فيقوم حارس القبة بطعن صورة الملك بحربته فيموت هذا

الملـك ، وسمـع كـسرى بـذلك فأرسـل امـرأة إلى حـارس القبـة فتحايلت عليه وسألته : ما الذي يبطل هذا الأمر ؟ فقال لها : أن تدهن صورة الملك بدهن خنزير ، فسقته خمراً ، ولما سكر قامت ودهنت صورة كسرى بدهن خنزير ، وبهذا استطاع كسرى دخول مصر كما تقول الأسطورة .

بدأت الطائرة تخفض ارتفاعها ، وحينها بدأت تظهر أهرامات الجيزة الشامخة وسط الصحراء ، ويبدو نهر النيل والخضرة تحف جوانبه في دلتا وادي النيل في مناظر ساحرة ..

علـى طـول الطريـق مـن المطـار إلى وسـط القـاهرة كانـت زحمـة السيارات والبشر لا تتوقف ، وها هي مساجد القاهرة وجوامعها التي تشمخ بمنائرها العالية ، وترتفع إلى جوارها صلبان كاتدرائية العباسية ..

وصلوا أخيراً إلى فندق السوفيتيل الواقع في قلب نهر النيل .. لم تستطع شيرين أن تقاوم إغراء الجلوس في أحد مقاهيه المطلة على النيل ، جاءها وليام وهو يحمل في يده مفاتيح غرفتيهما ، في بهو الفندق عرض عليهما أحد العاملين في المكاتب السياحية ترتيب رحلة لهما إلى مدينتَي الأقصر وأسوان وبأسعار مناسبة ..

ـ إذا جئت إلى مصر فلا بد لك من زيارة الأقصر وأسوان ، هل تعلمان أن فيهما ثلث آثار العالم ؟!!

جلس الرجل يتكلم ويتكلم بشكل مستمر ، اسمعا لديكما خيارات متعددة في الذهاب ، يمكنكما الذهاب الطائرة .. خلال ساعة واحدة ستكونان في الأقصر ، ويمكنكما السفر بالسفن النيلية التي تبخر عبر نهر النيل ، وتستمتعان برؤية المناظر الخلابة والمدن والقرى على ضفتَي النهر ،

ويمكنكما السفر بالقطار الذي لا أنصحكما به ؛ لأنه يحتاج إلى حوالي إحدى عشرة ساعة .

حاولا إفهامه أنهما لا يرغبان السفر إلى الأقصر حالياً ، ولكنه استمر في ترغيبهما بقوله : هل تعرفان أنه كان يأتي آلاف السياح الغربيين إلى الأقصر مباشرة من أوربا ، ويذهبون لزيارة معبد الكرنك الشهير ومعبد الأقصر ووادي الملوك ومعبد الملكة حتشبسوت .. ماذا قلتما ؟ صمت برهة ، ثم واصل كلامه قائلاً : الفراعنة هؤلاء عظماء ، وحضارتهم أذهلت العالم وخاصة بعد اكتشاف مقابرهم في وادي الملوك .. هل تعلمان أنهم اختاروا مقابرهم في الصحراء ؟ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ أخبرنا . ردت عليه شيرين .

ـ كان كل فرعون يبني له مقبرة عظيمة تحت الأرض ، وبعد دفنه فيها تغطى بالرمال حتى لا يعرف اللصوص طريقهم إليها ، ولكن اللصوص استطاعوا الوصول إليها وسرقة معظمها ، وقليل منهم بقي سالماً منهم ..

ـ شكرا لك ، سنتصل بك إذا عزمنا على السفر إلى الأقصر ، وأخذا منه رقم هاتفه ، وصعدا إلى غرفتيهما .

فتح وليام كمبيوتره الشخصي ، واطلع على آخر الأخبار والتقارير ، وشاهد بعض القنوات الفضائية مثل فوكس نيوز و CNN و BBC ، قام بفتح ستائر الغرفة .. كان الليل قد حلَّ وخرج إلى الشرفة ليستمتع برؤية النيل وأضواء المراكب التي تقطع النهر ذهاباً وعودة وأصوات الموسيقى تندفع منها ، أُعجب بالمنظر الجميل ، وعاد إلى الغرفة ليرد على اتصال هاتفي .

ـ هل رأيت القاهرة الجميلة بالليل يا وليام ؟

ـ كنت في الشرفة يا شيرين أستمتع بهذا المنظر الحالم .

ـ ليس من الحكمة أن نبقى محبوسين في غرفتنا ونترك الاستمتاع بهذا الجمال للآخرين ، ما رأيك عزيزي أن نتجول في رحلة نيلية ؟

لم يكن بحاجة إلى دعوة شيرين ، وسرعان ما وجدا نفسيهما داخل إحدى المراكب المتحركة وسط النيل مع وجبة عشاء رائعة ووصلات رقص شرقي من راقصة مصرية ومعها مجموعة الراقصات اللاتي يقمن برقصات شعبية ومطرب يصدح بالأغاني الشبابية التي يتفاعل معها الجمهور ..

ـ القاهرة مدينة حيوية .. هكذا عبر وليام عن شعوره واستمتاعه .

ـ ونهر النيل هو روحها .. انظر إلى العائلات وإلى العشاق فوق جسورها .. المطاعم مملئة بالساهرين ، وأماكن السهر والشوارع والجسور ..

ـ لا أحد ينام في القاهرة .. هكذا أظن .

حينما عادا إلى الفندق جلسا في أحد الزوايا في حديقة الفندق المطلة على النيل ، وبادرت شيرين بالقول :

ـ وليام .. لقد كان يوماً جميلاً ..

ـ وخالياً من المشاكل والهموم النووية .. رد عليها وليام مع ابتسامة خفيفة ، وأردف قائلاً :

ـ ولكنني قلق من تطورات الأحداث .. إلى الآن لم يطلبوا مني شيئاً ، وهذا يعني أنهم لم يجدوا في السفينة الإيرانية المشتبه بها أي شيء ، وأن السفينة التي تحمل القنبلة النووية ما زالت مجهولة ..

ـ وكيف ذلك وأقمار التجسس ترصد كل بقعة في شرق البحر المتوسط ؟

ـ هناك استراتيجية الاختفاء .. الإرهابيون يعلمون أن العالم كله يبحث عنهم ، ولذلك من المحتمل أن يختفوا في أحد الشواطئ ، ويتوقفوا عن الإبحار حتى تخف مراقبتهم ، وأقمار التجسس ومئات

الجواسيس مجنَّدون للتبليغ عن أية سفينة يشتبه بها ، والمشكلة أننا لا نعرف حجم هذه السفينة ، ولا أي معلومات عنها .

ـ إذاً سوف نستمتع بإجازة قصيرة في مصر ، ماذا سنفعل غداً ؟

ـ أفكر في زيارة الأهرامات والمتحف المصري صباحاً .

ـ رائع جداً ..

حين صعدت شيرين إلى غرفتها لبست ملابس النوم واستلقت على السرير وحاولت النوم ، لكنها عبثاً تحاول ، ربما بسبب كمية القهوة التي شربتها اليوم ، أزاحت غطاء السرير واندفعت إلى الشرفة ، وفتحت بابها الزجاجي ، وقفت تنظر إلى النيل ، كانت البواخر والسفن بدأت تقل في حركتها ، فالساعة الآن حوالي الثانية صباحاً .

صباحاً اتفق وليام مع صاحب المكتب السياحي في الفندق على ترتيب جولة لهما لزيارة الأهرامات في الساعة العاشرة ، وبعد الإفطار وقفا أمام المكتب ووجدا فيه فتاة عرفتهما بنفسها قائلة :

ـ أنا نادين مرشدة سياحية ، وقد كلفت من الشركة السياحية بمرافقتكما في جولة في الأهرامات .

في الطريق حدثتهما عن الأهرامات إحدى عجائب الدنيا التي ما زالت باقية وشاهدة على عبقرية الفن المعماري عند الفراعنة ، سألتها شيرين عن قصة لعنة الفراعنة :

ـ هذه ليست حقيقة ، هي مجرد هوس وخيال عند الروائيين وصناع الأفلام ، وبدأت تظهر عقب موت اللورد كانافون الذي موَّل مشروع حفر مقبرة توت عنخ آمون الملك الشاب ، وقد توفي بعد فتح المقبرة بعام واحد ، والصحيح أنه توفي بسبب تسمم في الدم نتيجة عضَّة بعوضة ، ولكن الصحافة الإنجليزية كتبت أنه مات بسبب لعنة

الفراعنة ، رغم أن هوارد كارتر مكتشف المقبرة عاش حتى الستين من عمره ، ومن الطبيعي أن تكون المقبرة المغلقة منذ ثلاثة آلاف سنة مليئة بالجراثيم الفتاكة التي تدخل جسم الإنسان ، ولذلك جرت العادة ألا يتم دخول المقابر الجديدة إلا بعد يومين من فتحها حتى يزول الهواء الفاسد منها .

وصلوا إلى منطقة الأهرامات بعد نصف ساعة ، ولم تكن هناك زحمة من السياح ، أخذتهما نادين في جولة على الأهرامات بالحنطور ، وهي عربة يجرُّها الحصان ، وتوقفت عند الهرم الأكبر ، وقالت لهما :

ـ هذا هو الهرم الأكبر هرم خوفو ، وهو أكبر أهرامات مصر التي يبلغ عددها حوالي مائة وأربعين هرماً ، وأشارت إلى هرمين آخرين وقالت : هذا هرم خفرع ، وهذا هرم منقرع ، والأهرامات مقابر ملكية، يحمل كل منها اسم الفرعون الذي بناه وتم دفنه فيه ، وإلى جوار هذه الأهرامات الكبيرة بُنيت أهرامات صغيرة ومدافن لزوجات الفراعنة وعائلاتهم الملكية .

ـ وكيف استطاع الفراعنة بناءها بهذا الشكل الهندسي الرائع ؟ سألها وليام .

ـ في الحقيقة ما زال العلماء يدرسون هذه القصة التي تشير بكل تأكيد إلى براعة الفراعنة وتطور فن المعمار لديهم ، وخاصة من ناحية قدرتهم على رفع هذه الأحجار الضخمة التي يصل وزن بعضها إلى خمسين طناً ، ومن ناحية دقة عملهم الهندسي ، ومن آخر النظريات التي اطلعت عليها مؤخراً نظرية إلغاء الجاذبية الأرضية ، حيث تشير النظرية إلى تمكن الفراعنة من إلغاء الجاذبية الأرضية عند رفع الأحجار التي بنيت بها الأهرامات وتحريكها إلى

مسافات طويلة ، وذلك عن طريق توجيه ذبذبات صوتية وشحنات كهروستاتيكية لتسهيل عملية الرفع ، وهذه النظرية تشير إلى نجاح الفراعنة في السيطرة على كثير من القوى الكونية واستغلال طاقتها الهائلة في بناء معالم حضارتهم .

ـ هناك من يقول بأنهم استخدموا السحر والسحرة الموجودين في مصر في تلك الفترة . علقت شيرين ..

ـ هذا أحد الاحتمالات والنظريات التي يقول بها البعض .

توقف الحنطور أمام تمثال أبي الهول ، وأشارت نادين إليه قائلة :

ـ هذا التمثال الضخم هو تمثال أبي الهول ؛ جسمه جسم أسد ، ورأسه بشري على صورة الملك خفرع ، وكانت مهمته أن يحرس المقابر والمعابد .

ـ شيرين .. سأقول لك شيئاً عن خصائص الأهرامات ، وهو أنه يعيد تلميع المجوهرات والعملات القديمة ، فإذا كان لديك مجوهرات قديمة لجدتك جربي وضعيها في الأهرامات .. ضحكت شيرين وعلقت : سأكتب وصية لأحفادي بذلك .

وعند المغادرة قالت لهم المرشدة السياحية :

ـ لقد عمل في بناء الأهرامات مائة ألف شخص على أقل التقديرات .

أوصلتهما نادين بسيارتها إلى المتحف المصري بجوار ميدان التحرير ، وأخذت لهما صوراً تذكارية في هذا الميدان الذي شهد ثورة الشعب المصري في ٢٥ يناير ٢٠١١ م ، قاما بجولة في المتحف المصري ، ودهشا من آلاف التماثيل التي يحتويها ، ودخلا إلى الغرفة الزجاجية التي تحتوي المومياوات الملكية ، وخاصة مومياء الفرعون رمسيس الثاني الذي يعتقد أنه فرعون موسى .

في الفندق تلقى وليام اتصالاً من رؤسائه ، وفيه تم إعلامه بأن الفرقة الأمنية التابعة للأسطول الأمريكي أكدت خلو السفينة الإيرانية المشتبه بها من الأسلحة النووية .

كانت شيرين إلى جواره ، وأطلعها على الأخبار وقالت له :

ـ إذاً ما رأيك أن نقضي يوماً في الأقصر ؟

ـ سوف يسر صديقنا ، وسيدرك أن كلامه لم يذهب معنا عبثاً .

ولكن بعد دقائق تلقى وليام اتصالاً من رئيسه :

ـ وليام .. اتجه فوراً إلى المطار ، لقد تم الحجز لكما على طائرة الخطوط التركية إلى اسطنبول ، سوف تجد هناك من ينتظركما ويسلمكما ملفاً بكل ما لدينا من معلومات عن تطورات القضية .. أتمنى لكما رحلة موفقة .

نظر وليام إلى شيرين ، ونظرت إليه وقالا بصوت واحد : وداعاً للأقصر

فتح وليام جهاز التليفزيون فوجد في الأخبار العاجلة أنه تم القبض في اسطنبول على خلية تابعة لحزب الله اللبناني ..

تساءلا هل لهذا الأمر علاقة بسفرهما .. لم يكن لديهما وقت ليتناقشا في الموضوع فالطائرة سوف تقلع بعد ساعتين من الآن ...

اسطنبول ـ ترکیا

جلس وليام في مقعده في الطائرة يتصفح الملف الذي استلمه في المطار ، كانت فيه معلومات عن خلية حزب الله التي أُلقي القبض عليها في تركيا قبل ساعات ، وتشير التحقيقات الأولية التي وصلتهم من الاستخبارات التركية بصلة هذه المجموعة مع السفينة التي تحمل الشحنة النووية ، وكانت الأوامر له محددة تماماً ؛ إما أن يحصل منهم على اعترافات كاملة ، أو استلامهم وترحيلهم إلى الولايات المتحدة حسب الاتفاق مع الحكومة التركية ، وقرأ تفصيلات كثيرة حول مهمته والأشياء المخول بالتوقيع عليها .

بدأت الطائرة الهبوط التدريجي في مطار أتاتورك الدولي في اسطنبول ، وبدأت تظهر معالم المدينة الشهيرة بمآذنها وقباب جوامعها ، ومضيق البوسفور الذي يربط البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط .

ـ إنها من أجمل المدن ورؤيتها من الجو يجعلها أجمل ، هكذا عبرت شيرين عن إعجابها .

ـ من أجمل المدن تجمع بين البحر والجبل والخضرة والمباني الحضارية، أجابها وليام وهو يلقي نظرة من نافذة الطائرة .

عند الخروج من الطائرة وجد اثنين من ضباط الاستخبارات التركية يلقيان عليه التحية ويعرفانه بنفسيهما ، وطلبا منهما جوازي سفريهما لإنهاء إجراءات دخولهما بسرعة .

ركبا معهما في سيارتهما ...

أبدى وليام إعجابه بجمال اسطنبول .

ـ أرجو أن يتأخر اعترافهم عدة أيام حتى نستمتع بالبقاء هنا عدة أيام قالها وليام ضاحكاً .

ـــ في الحقيقة لدينا أدلة دامغة بشأن صلتهم بالسفينة وتحميل الشحنة النووية من خلال تسجيل محادثات لأعضاء الخلية ، ومن خلال تفتيش هواتفهم ، هكذا تحدث الضابط التركي .

ـ وهل اعترفوا بشيء ؟ سأل وليام .

ـ لقد اعترفوا فقط بصلتهم بحزب الله ، ولكنهم أنكروا معرفتهم بأي شيء يتعلق بالسفينة أو القنبلة النووية .

ـ حسناً .. اسمع يا كولونيل .. لديَّ تفويض من المخابرات باستلامهم إذا لم أحصل منهم على اعترافات كاملة .

ـ حسناً .. وكم الوقت الذي لديك للتحقيق ؟

ـ نظراً لخطورة الأمر واستعجاله ، فإن المدة التي أعطيت لي لا تتجاوز ست ساعات فقط .

ـــ حسناً .. أتمنى لكم التوفيق ، أود أن أخبرك عن أمر حصل اليوم ، لقد أفشلنا عملية كانت تستهدف الوصول إلى المتهمين .

ـ كانوا يريدون تهريبهم إذاً ؟ تساءل وليام .

ـ كلا سيدي .. اتضح لنا أن المطلوب كان تصفيتهم حتى لا يعترفوا، وقد اتضح لنا ذلك من خلال الرسائل النصية في هواتفهم واعترافاتهم لنا .

وصلوا إلى مبنى جهاز الأمن ، وبدأ وليام تحقيقاته معهم بصورة انفرادية ، ولكنه أخفق في الحصول على أي اعتراف .

وبعدما بذل كل ما بوسعه معهم ، جمعهم في غرفة واحدة ليقول لهم : أنتم أحرار في عدم اعترافكم ، ولكن كونوا على ثقة أنه لو حصلت كارثة فستكون بسبب صمتكم ، والآن عليَّ أن أخبركم بأنه سيتم ترحيلكم إلى غوانتانامو وأنتم تعرفون ما ينتظركم هناك ..

أوقف وليام حديثه معهم وخرج خارج الغرفة ليرد على اتصال عاجل من رؤسائه ، عاد إلى الغرفة ثانية وفاجأهم بقوله :

ـ يبدو أنكم لن تذهبوا إلى غوانتانامو لوحدكم ، فسوف تلحق بكم زوجاتكم وأبناؤكم أيضاً ، لقد تلقيت للتو اتصالاً من بيروت يخبرني بأن عائلاتكم اعترفوا اعترافات تفصيلية بمساعدتهم لكم .

نظر المتهمون إلى بعضهم بعضاً نظرات كلها رعب ، وبدا أن أحدهم أراد الكلام ، ولكن أكبرهم سناً قال : لا تصدقوه .

ـ حسناً ، وداعاً ، قد نلتقي قريباً في غوانتانامو ، واتجه وليام نحو باب الغرفة ، وفجأة ناداه ذلك الشخص قائلاً :

ـ انتظر .. انتظر يا سيدي .. حسناً سوف أعترف ، ولكن أرجو أن تعطيني وعداً بألا تمس عائلتي بسوء .

ـ أعدك بذلك ، إلا إذا ثبت لنا اشتراكها معكم في الجريمة .

ـ حسناً .. نعترف لكم بأننا نحن الذين قمنا بتحميل القنبلة في السفينة ، وهي تحمل علم قبرص .

ـ ومن صاحب السفينة ؟

ـ إنها ملكنا ، سلَّمها لنا الحرس الثوري الإيراني قبل شهر .

ـ وماذا فيها من أسلحة ؟

ـ إنها مجهزة بصواريخ أرض أرض وأرض جو ، ومجهزة بقاعدة قادرة على إطلاق صاروخ بالستي قصير المدى لديه القدرة على حمل رأس نووي إلى مسافة ١٠٠ كم .

ـ وهل الصاروخ البالستي موجود في السفينة ؟

ـ نعم .. ويمكن للمهندس أن يقوم بتركيبه خلال وقت قصير .

ـ وأين ستتجه ؟ أين مكانها الآن ؟

ـ لا أعرف .. صدقني إنني لا أعرف ، ولو كنت أعرف لقلت لك ، هذه هي مهمتنا ، أما مهمة قيادة السفينة فهي لآخرين لا نعرفهم ، ولكنني شاهدت مهندساً إيرانياً على ظهر السفينة ، وأظن أنه المسئول عن تركيب وتشغيل الصاروخ البالستي .

أخذ وليام تفاصيل عن حجم السفينة وأوصافها ، وأرسلها بسرعة إلى قيادته .. شكر وليام الكولونيل التركي على تعاونه ، وطلب منه إيصاله إلى فندق الفورسيزون .. وصل إلى الفندق .. كان في غاية التعب بسبب السفر ومتاعب التحقيق ، واتفق مع شيرين على الاحتفال بنجاحهما بعشاء فاخر على إحدى البواخر في البوسفور .

في الساعة التاسعة مساءً ذهبا إلى منطقة كبتاش ، وركبا في إحدى السفن العائمة في البوسفور ، والتي توفر عشاءً فاخراً وبرنامجاً يتضمن رقصات من الفلكلور الشعبي التركي واستعراضات راقصة لمدة ثلاث ساعات ، تعرفا على أصحابهم في طاولة الطعام ، وكانا زوجين تركيين جاءا من أنقرة لقضاء إجازة يومين ، وزوجين من المجر ، وكان حديثهم المشترك باللغة الإنجليزية .. ثارت ثائرة المجريين حيث تحدث الزوج التركي عن ضمْ السلطان سليمان القانوني المجر إلى الدولة العثمانية ، وأخذ الرجل المجري يشتم السلطان القانوني :

ـ هذا القانوني سفاك للدماء ، اقرءوا ما قاله عنه المؤرخ الإنجليزي هارولد لامب : « إن أعياد المسيحيين كثيرة ، وإن سألتني عن أهمها فهو بلا شك يوم وفاة سليمان القانوني » ، وقول المؤرخ الألماني هاملر : « لقد كان هذا السلطان أخطر علينا من صلاح الدين نفسه » ، رد عليه الرجل التركي :

ـ أنتم أيها المجريون تكرهون هذا السلطان العظيم بسبب هزيمتكم في معركة موهاكس .

تدخل وليام وخاطبهما قائلاً :

ـ لو سمحتما ، أرجوكما الهدوء ، أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المعركة ، ليعرض كل واحد منكما روايته .

تحمس الشاب التركي ، وانطلق في حديثه :

ـ في سنة ١٥٢٦ قام ملك المجر لويس الثاني بقتل رسول السلطان سليمان القانوني ، وأرسل رأسه في صندوق إلى السلطان ، فغضب السلطان وجهز جيشاً لتأديب لويس الثاني ، وعبر السلطان بجيشه الضخم نهر الدانوب بواسطة جسر حجري ، وأمر بهدمه بعد العبور حتى لا يفكر أحد في التراجع ، فإما النصر أو الشهادة ، والتقى الجيشان في وادي موهاكس ، وبسبب الخطة المحكمة التي قام بها جيش السلطان حيث انسحبت مقدمة جيش السلطان متظاهرة بالهزيمة ليندفع الجيش المجري ليجد نفسه في مواجهة المدفعية العثمانية التي حصدت الجيش المجري ، وخلال ساعتين تم القضاء على الجيش المجري ، وقتل الملك لويس الثاني ومعه سبعة من الأساقفة وكبار قادة جيشه .

اندفع الرجل المجري ليرد :

ـ ليس الأمر كما قلت ، إن الذي حدث كان حرب إبادة للجيش المجري ، وفرسان الجيش المجري كانوا أبطالاً ، ولم يتم إتاحة الفرصة لهم ليحاربوا ، بل فوجئوا بنيران مدافع العثمانيين الذين كانوا متطورين في آلات الحرب ، والدليل على ذلك أن هذا السلطان فشل في حصاره لمدينة فينا عاصمة النمسا .

ـــ أتعـرف لمـاذا فـشل في حـصار فينـا ؟ بعـدما نجـح في الوصـول إلى بودابست قام بعدها بتجهيز جيش أكبر وحاصر به فينا ، ولكن تآمر الشاه الصفوي واحتلاله بغداد أجبر السلطان على فك حصار فينا والتوجه إلى تحرير بغداد من يد الجيش الصفوي الشيعي ، وقد ثبت عند المؤرخين أن الصفويين ساعدوا المجريين وساعدوا أهل النمسا في وقت الحصار لفينا ، وهناك مقولة يرددها الأوربيون وهي : « لولا الشاه لوصل العثمانيون إلى نهر الراين » ، لقد وجهوا طعنة إلى السلطان من الخلف .

وزاد حماس التركي فقال :

ـ إيران اليوم يحكمها الصفويون الجدد ، وهم يحتلون بغداد عن طريق عملائهم وأتباعهم ممن كانوا يعيشون في إيران وقت صدام حسين ، وجاءوا على ظهر دبابات الاحتلال الأمريكي في ٢٠٠٣ م ، وإيران اليوم تخاف من الأتراك ، وتخشى من أردوغان الذي ننظر إليه على أنه سليمان القانوني الجديد الذي سيدمر أحلامهم في العراق وسوريا .

وعلق الرجل المجري بقوله :

ـــ هناك مثل عند المجريين عند التعرض للحظ السيئ يقولون : « أسوء من هزيمتنا في موهاكس » .

علَّقت شيرين على الحوار الساخن بقولها :

ـــ التسامح .. التسامح .. التسامح ، علينا أن نكون متسامحين ، وألا نسمح للأحقاد التي تخلفها الحروب الدينية والسياسية أن تتحكم فينا اليوم ، ما أحوجنا اليوم إلى صوت العقل والدعوة إلى التسامح بين البشر مهما اختلفت أديانهم ولغاتهم وبلادهم .

أيَّد الجميع كلام شيرين ، واتفقوا على ضرورة التسامح ونبذ الكراهية ، والابتعاد عن زرع الأحقاد ، والدعوة إلى احترام الأخوة الإنسانية ، سكت الجميع حينما بدأ عرض للزواج التقليدي التركي القديم .

ـ الثقافة والفن بإمكانهما أن توحدا الشعوب وتجمعا القلوب .. هكذا علقت شيرين .

وصلت الباخرة إلى جسر محمد الفاتح الذي يصل القسم الأوربي في اسطنبول بالقسم الأسيوي ، كان يتلألأ بالأضواء التي تزيده جمالاً وروعة ، وتواصل البرنامج الفني ، وفي الجزء الأخير منه صدحت الموسيقى الصاخبة التي تفاعل معها مجموعة من الحاضرين بالرقص ، تلتها موسيقى هادئة وراح البعض يرقص عليها وسط الأضواء الخافتة .. مسك وليام يد شيرين وانطلقا يرقصان بهدوء وسط مجموعة من الراقصين من مختلف البلاد .. انتهت الرحلة عند منتصف الليل .

في الفندق جلسا يستمتعان بجلسة ساحرة على ضفاف البوسفور ، وهما يتأملان أنوار اسطنبول ..

ـ ماذا سنعمل غدا يا وليام ، سألت شيرين .

ـ إنني أنتظر وصول التعليمات لي ، ولا أعرف متى سنغادر ، الأماكن السياحية والأثرية في اسطنبول كثيرة ؛ آيا صوفيا ، متحف طوب كوبي ، مسجد السلطان أحمد ..

ـ أظن أن آيا صوفيا أهمهما على الإطلاق .

ـ نعم .. ولذلك فكرت في زيارته بعد الإفطار غداً .

ـ حسناً يا عزيزي ..

دخلا المصعد وعند باب غرفتها ودعته بقبلة خاطفة قائلة :

ـ شكراً على هذه الليلة الجميلة .

ـ تعالي إلى غرفتي لنكمل سهرتنا في التراس .

ـ حسناً سوف أغير ملابسي وألحق بك .

دخل وليام غرفته ولبس بيجامة بنية ، وبعد دقائق جاءت شيرين ، وكانت تلبس فستاناً أسود قصيراً شبه عار من الأعلى ..

في الصباح ركبا التاكسي متجهين إلى منطقة السلطان أحمد لزيارة آيا صوفيا ، سألت شيرين صاحب التاكسي عن آيا صوفيا ، هل هو كنيسة أم مسجد أم متحف ؟

فهم السائق كلامها الإنجليزي على غير عادة سائقي التاكسي الأتراك الذين لا يعرفون إلا اللغة التركية وأجابها :

ـــ هو الآن متحف ، كان في الأصل كاتدرائية ، بناها الإمبراطور جوستنيان على أنقاض كنيسة قديمة كان قد بناها الإمبراطور قسطنطين وتحولت إلى جامع على يد محمد الفاتح الذي اشتراها بالمال ، وعندما أسس مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية التركية الحديثة حوَّلها إلى متحف .

ـــ هذا أمر سيء أن يتم تغيير أماكن العبادة المسيحية إلى مسلمة أو العكس .. أماكن العبادة يجب أن تحترم . علقت شيرين .

ـ هذا صحيح سيدتي ، ولذلك المسيحيون كلهم يحترمون الخليفة عمر بن الخطاب الذي فتح القدس ورفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا تتحول إلى مسجد ، والآن الرئيس أردوغان يرفض الدعوات الكثيرة لعودتها إلى مسجد ، وكان يقول يوجد في اسطنبول ثلاثة آلاف مسجد .

ـــ ولماذا لا تعود إلى المسيحيين الأرثوذكس الذين يقدر عددهم بثلاثمائة مليون في العالم ويكون ذلك بمثابة رمز لتسامح المسلمين مع الأديان الأخرى ؟ سألت شيرين .

ـ أتمنى أن يحصل ذلك في كل مكان ، وليس في اسطنبول فقط ، في الأندلس كثير من مساجد المسلمين تحولت إلى كاتدرائيات ، ومن أعظمها جامع قرطبة الكبير ، وجامع أشبيليا الكبير .

أُعجب وليام بثقافة السائق وتفكيره ، وسأله :

ـــ بالأمس مررنا في طريقنا بالقرب من آيا صوفيا ، وسمعنا الأذان يتردد من مآذنها ، هل سُمح للناس بالصلاة فيها ؟

ـــ كانت هناك مطالبات شعبية بإعادة تحويله إلى جامع ، وأردوغان يرفض ذلك ، ولكن تم فتح مسجد في الجزء الخلفي من آيا صوفيا، ويقع في نفس ساحة آيا صوفيا ، ويتردد الأذان من خلاله في مآذن آيا صوفيا ، وقد اعترضت اليونان على ذلك ، وطالب بطريرك الأرثوذكس ببقاء آيا صوفيا متحفاً .. اليونانيون لا يحق لهم الاعتراض لأنهم قاموا بهدم الآثار العثمانية في اليونان ، وحوَّلوا أحد المساجد في مدينة سالونيك إلى صالة سينما ، وتُعرض فيه الأفلام الإباحية !!

ـــ آيا صوفيا يعتبر رمزاً دينياً عند ملايين المسيحيين الأرثوذكس الذين يزورونه كل عام ، ولذلك لن يقبلوا إعادته إلى مسجد .

ـــ لقد أصدرت المفوضية الأمريكية للحرية الدينية في العالم ، وهي هيئة استشارية أنشأها الكونغرس الأمريكي ، أصدرت بياناً قالت فيه إن تحويل آيا صوفيا إلى مسجد سيعرض وضع تركيا الدولي

للخطر ، وسيعيد إلى الأذهان معاملتها للمسيحيين خلال القرن الماضي . علَّق وليام .

فرد عليه السائق التركي :

ـ أمريكا آخر مَن يحق لها الكلام ، لقد قامت بتدمير مساجد العراق في الفلوجة ، وفي بغداد ، وفي غيرهما من المدن ، وهي ترى وتسمع بما قامت به روسيا من تدمير لمساجد حلب ومستشفياتها .

وصلا إلى آيا صوفيا ، وحينما وقفا في بهوه ونظرا إلى قبته العجيبة قال وليام لشيرين :

ـ أتدرين ماذا قال الإمبراطور جوستنيان لمَّا دخله بعد إتمام بنائه ؟ ، لقد قال : « يا سليمان الحكيم .. اشهد فقد تفوقتُ عليك » ، ثم خرج إلى الساحة الخارجية ليرد على مكالمة هاتفية ، وحينما عاد قال لشيرين :

ـ كل الطرق تؤدي إلى روما ، سوف نذهب إلى قبرص عن طريق روما .

ـ روما ـ إيطاليا ، ماذا هناك يا وليام ؟

ـ سأحضر اجتماعا عاجلا في روما بشأن أزمة السفينة لمدراء الاستخبارات لدول شرق المتوسط المعنيين بالأزمة ، ثم نكمل رحلتنا إلى قبرص ..

روما ـ إيطاليا

أغنية (أربع وعشرون ألف قبلة) ، أغنية إيطالية قديمة كان وليام يستمع إليها والطائرة تهبط في مطار روما ، وتقول الأغنية العاطفية :

بأربع وعشرين ألف قبلة

ستعرف اليوم لماذا يريد الحب

في كل لحظة ألف قبلة

وفي كل ساعة ألف مداعبة

بأربع وعشرين ألف قبلة

تمر هنيئة ساعات يوم مشرق

لأنني أقبلك في كل لحظة

لا أريد منك أكاذيب عجيبة

ولا عبارات غزل مضطرمة بالحب

وإنما أريد قبلاً فقط

أنت دفعت بي إلى الجنون

بأربع وعشرين ألف قبلة

ففي كل دقيقة أقبلك ..

حينما فتح وليام هاتفه تلقى اتصالاً عرف من خلاله أن الاجتماع قد أُلغي وأن عليه أن يواصل رحلته إلى قبرص ، وأخبر شيرين بذلك :

ـ شيرين .. لدينا ٨ ساعات انتظار قبل موعد رحلتنا إلى قبرص ، ما رأيك أن نأخذ جولة في شوارع روما ؟

ـ حسناً .. هذه فرصة جاءتنا من السماء .

اتصل وليام بصديقته إيزابيلا ، وهي مثقفة إيطالية يسارية متعاطفة مع القضايا العربية ، واتفق على اللقاء معها بعد أربع ساعات ..

وجد أن أفضل طريقة لاكتشاف مدينة روما هو ركوب الباص السياحي الأحمر الذي يقوم بالتوقف عند أبرز المزارات السياحية ، حيث يمكنهما النزول في أي مكان ومواصلة الجولة في باص آخر ..

ـــ روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية .. روما تمثل قلب العالم المسيحي منذ وصول القديس بطرس الأول إليها في القرن الأول الميلادي .. روما متحف مفتوح .. في كل شارع من شوارعها معْلم أو تمثال أو نافورة .. هكذا بدأت المرشدة السياحية كلامها ، وراحت تشرح لهم تفاصيل عن المعالم التي يمر بها الباص السياحي .

ـ هنا دولة الفاتيكان ، وهذه ساحة كاتدرائية القديس بطرس ، وهذا هو الكولوسيوم المدرج الروماني حيث كان القيصر يتفرج على المصارعة بين رجلين أو بين حيوانين أو بين رجل وحيوان ويكافئ المنتصر .. وهنا نافورة فونتانا دي تريفي أشهر نوافير روما التي يصل عددها إلى ألفي نافورة ، والناس يلقون فيها قطع النقود المعدنية التي يقال إنها تكون سبباً في عودتهم إليها مرة أخرى ، وهناك أسطورة حول هذا النبع المائي فيقال إن أحد ملوك روما كان يبحث عن نبع ماء فظهرت لهم مريم العذراء ودلَّتهم على هذا النبع ، وهذه ساحة بياتزا نافونا أشهر ميادين روما على الإطلاق ، والمكان الذي يحبه الكُتَّاب والفنانون ، وهذا شارع فيا كوندوتي شارع الماركات والموضة العالمية ، وهذه ساحة أسبانيا الدرج الأسباني مكان التجمع العالمي للسياح من كل مكان ، وهذا شارع فينيتو أشهر شوارع روما الذي توجد فيه الفنادق الفخمة والمتاجر المتنوعة ..

حين وقف الباص السياحي في شارع فينيتو نزلا منه ، ودخلا أحد مطاعم البيتزا ، وجاءتهم إيزابيلا ، ومعها شاب سوري عرَّفتهم عليه إنه سليمان شاب من حلب جاء مهاجراً إلى إيطاليا .

تحدث سليمان عن قصة هجرته ، والأهوال التي واجهها في البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى جزيرة لامبيدوزا الإيطالية ، وقد أنشأت فيها الحكومة الإيطالية مركزاً لإيواء المهاجرين .

ـ لماذا عرَّضت نفسك للموت ؟ سأله وليام .

ـ لم يعد لنا خيار ؛ إما الموت في سوريا أو الهجرة .. إنهم يقتلوننا .

ـ من هم ؟

ـ المحتلون الإيرانيون والروس لسوريا ، لقد دمروا بيتي ، وقتلوا عدداً من أقاربي .

كانت إيزابيلا ، وهي مثقفة إيطالية وناشطة في مجال حقوق الإنسان ، تستمع إلى كلام سليمان .

سألته إيزابيلا :

ـ لماذا يقتلونكم ؟

ـ جيش النظام السوري وإيران وروسيا تحتلان بلدي سوريا ، وإيران لديها مخطط لتغيير التركيبة السكانية في سوريا بحيث يتم تهجير السُّنَّة الذين يشكّلون ٧٠ ٪ من السكان ، واستجلاب مجموعات كبيرة من الشيعة من إيران والعراق للإقامة في المدن السورية .

ـ ألا ترى أنك تبالغ في هذا الموضوع ؟

ـ كلا .. فأنا واحد من ملايين السنة الذين هاجروا من سوريا .

كانت إيزابيلا مثالاً حيّاً على المثقفين من أصحاب الضمائر الحية ، وقد عاشت في سوريا سنتين ، وتعلمت اللغة العربية هناك ، ولذلك فهي لا

تتأثر بما يقوله السَّاسة ، وما تبثه وسائل الإعلام من تحريض وتشويه لصورة العرب ، ولذلك بادرته بالقول :

ـ نفاق أمريكا والدول الغربية يثير اشمئزازي وغضبي .. لقد اطلعت على تصريحات سرية خطيرة لمسئول أمريكي يقول فيها بأنهم حلفاء مع إيران ، والإيرانيون ليسوا أعداء لهم بل متفقون معهم في الهدف وهو القضاء على الإسلام وتدمير البلاد العربية والإسلامية .

ـ نعم هم الذين دعموا ثورة الخميني في إيران ، وهم الذين قدَّموا العراق على طبق من ذهب إلى إيران بعد إسقاط صدام حسين .

ـ وإيران ساعدت أمريكا في احتلال أفغانستان واحتلال العراق .

ـ ولكن أين مفكرو الغرب ؟ وأين أساتذة الجامعات والمثقفون ؟ ولماذا لا يصدرون بيانات إدانة لما يحدث من مجازر في سوريا ؟ سألت شيرين .

وردَّت عليها إيزابيلا :

ـ للأسف فوسائل الإعلام تعمل صباح مساء على تشويه صورة العرب والمسلمين وهي مؤثر قوي في الرأي العام ، ولكن هناك عدد كبير من المثقفين الذين يستنكرون ما يحدث ، ولكن للأسف صوتهم غير مسموع ، بل إن أوربا تتجه إلى التطرف والعنصرية ، والأحزاب العنصرية تتقدم في الانتخابات مستغلين عواطف الناس وتخويفهم من اللاجئين .

نظر وليام إلى ساعته وقال :

ـ أظن أن علينا الآن أن نتوجه إلى المطار لنلحق بالطائرة المتجهة إلى قبرص .

حين أخذت مكانها في الطائرة قالت شيرين :

ـ الإيطاليون شعب مرح بطبيعته ويحبون الأجانب ، تمنيت أن أبقى في إيطاليا أكثر .

ـ اسمعي هذه الأغنية يا شيرين :

هذه أغنية إيطالية (أريفيد يرتشي روما) ، وتعني : إلى اللقاء يا روما

وضعت شيرين السماعة في آذانها وراحت تستمع إلى الأغنية :

أنا أحسدك أيها السائح

فأنت ما تكاد تصل حتى تنغمس في

الملاعب والآثار القديمة

وما تلبث أن ترى دفعة واحدة

نبع تريفي كله لك

هناك أسطورة رومانية مرتبطة

بهذا النبع القديم

فأنت إذا ألقيت فيه قطعة نقد صغيرة

فسترغم الأقدار على أن تعيدك إليه

وبينما تروح القطعة تلثم الينبوع الكبير

تتردد في أعماقك الأغنية التالية :

أريفيد يرتشي روما

جودباي ـ أورفوار ...

الكرملين ـ موسكو

وقف مراسل قناة الجزيرة مثل مئات الصحفيين في الساحة الحمراء ، وأمامهم قصور الكرملين بقبابها الذهبية وفخامتها الأسطورية ، الكل ينتظر نتائج اجتماع الرئيسين الروسي والإيراني .

في حديث له مع مراسل BBC تساءل عن غياب صوت المثقفين الروس من المجازر التي تقوم بها بلادهم في سوريا ضد الشعب السوري والأطفال والنساء ، ولكنه تذكر قصة الكاتب الروسي الكبير مكسيم جوركي الذي ظل صامتاً ضد جرائم ستالين وقَتْلِه لملايين الروس ... إن سكوت المثقف عن مواجهة الطغيان خيانة ؛ خيانة لنفسه قبل أن تكون خيانة لوطنه .

ظهر الرئيس الروسي في مؤتمر صحفي بعد انتهاء اجتماع مع الرئيس الإيراني ، وأعلن فيه عن تشكيل حلف روسي إيراني ، وأعلن أن روسيا سوف ترسل فرقة قوامها ثلاثون ألف جندي من الجيش الروسي إلى سوريا لمحاربة الإرهابيين ، والمحافظة على مصالح روسيا في منطقة الشرق الأوسط .

تصدر هذا الخبر العاجل عناوين الأخبار في القنوات الإخبارية العالمية ، وكذلك ردود الأفعال من جانب الدول الغربية ودول الشرق الأوسط التي رفض معظمها تدخل الجيش الروسي في سوريا ..

سأل مراسل CNN الرئيس الروسي : هل ستقوم روسيا باحتلال سوريا ، وتكرر تجربة احتلالها المريرة لأفغانستان ؟

ــ كلا ليست لدينا نوايا لاحتلال سوريا ، ولكن سنذهب من أجل مساعدة حلفائنا في المنطقة ، ومحاربة الإرهابيين ، والحفاظ على مصالح روسيا في المنطقة . هكذا أجاب الرئيس الروسي .

ــ الجيش الروسي ارتكب مجازر ، وقتل أكثر من مليون أفغاني ، ولذلك فإن العرب والمسلمين لا يرحبون بكم .. ألا تخافون أن تقع

روسيا في المستنقع السوري ، وتخرج بهزيمة ذليلة كما حصل في أفغانستان ؟ سأل مراسل قناة الجزيرة .

ـ لدينا حلفاء في الدول العربية ، وسوف نتعاون معهم من أجل إحلال السلام في المنطقة ، والجيش الروسي من أقوى الجيوش في العالم ، ولن يُهزم أبداً ..

ـ وماذا ستفعلون مع الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية التي ترفض تدخلكم في سوريا ؟ سأل مراسل BBC .

ـ أرجو أن يتفهم أصدقاؤنا الأمريكان والغربيون موقفنا أن لنا مصالحنا الحيوية في هذه المنطقة ، ونحن على استعداد للتفاهم معهم .

كان تصريح قائد الجيش السوري الحر من أقوى ردود الأفعال ؛ حيث أعلن أنه سوف يعتبر الجيش الروسي جيش احتلال ، ودعا العرب والمسلمين إلى الوقوف في وجه الاحتلال الروسي لسوريا .

وكذلك الموقف القوي الرافض من قبل الرئيس التركي الذي دعا إلى حلف إسلامي لمواجهة التحالف الروسي الإيراني .

في الساحة الحمراء مقابل قصر الكرملين كانت معظم القنوات الإخبارية تبث عن طريق مراسليها بشكل مباشر ، وكانت الساحة تعجُّ أيضاً برجال الأمن .. وقفت ناتاشا ، أستاذة العلوم السياسية في جامعة موسكو ، تدلي بتصريحاتها إلى وسائل الإعلام ، وهي مؤيِّدة لسياسات الرئيس الروسي التي ترى أنها أعادت الهيبة إلى روسيا ، وإلى مكانتها على الساحة العالمية .

ـ د. ناتاشا .. هل سنرى عودة الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا من جديد ؟ سألتها المراسلة .

ـ كلا .. روسيا لا تسعى إلى عودة الحرب الباردة ، ولكن منطقة الشرق الأوسط منطقة حيوية بالنسبة للعالم كله ؛ ففيها ٧٠ ٪ من

احتياطيات النفط في العالم ، إضافة إلى تحكمها في أهم الممرات وطرق الملاحة العالمية .

ـ الرئيس التركي دعا إلى إنشاء حلف إسلامي في مواجهة الحلف الروسي الإيراني .. ألا يثير ذلك مخاوف روسيا ؟

ـ نعم .. يثير مخاوفنا ، ونحن يجب أن نتذكر تجربة تدخل الجيش السوفيتي في أفغانستان ، ومجيء آلاف المقاتلين العرب والمسلمين بدعوى الجهاد ضد الروس الشيوعيين ، ونحن نخشى أن تتحول تركيا إلى قاعدة تنطلق منها العمليات ضد الجيش الروسي في سوريا .

قبرص

تلقى وليام اتصالاً من رئيسه ، وطلب منه التوجه إلى موقع محدد في البحر الأبيض المتوسط قريب من جزيرة قبرص يشتبه بأن السفينة التي تحمل الرأس النووي موجودة فيه .

انطلقت مروحيتان باتجاه الموقع المحدد .. وصعد وليام وشيرين على إحداهما .. كانت المياه الزرقاء صافية تنعكس عليها أشعة الشمس ، ومن بعيد بدأت تظهر للعيان قبرص .. واحدة من أجمل جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت على الدوام وكراً مشهوراً للجواسيس من أنحاء العالم ... اتصل به مدير العمليات قائلاً :

ـ السفينة في المياه الدولية خارج المياه الإقليمية القبرصية ، وإحدى بوارج الأسطول الأمريكي الخامس متجهة إليكم .. أرجو أن تراقبوا السفينة حتى يصل إليكم مشاة البحرية .. هل سمعت يا وليام ؟

ـ سمعت كلامك جيداً يا سيدي .. أنهى كلامه مع مدير العمليات وتوجه إلى شيرين قائلاً :

ـ إنني لم أزر قبرص مطلقاً .. ما رأيك لو نطلب إجازة فيها بضعة أيام ؟

ـ وأنا أيضاً لم تُتَحْ لي فرصة زيارتها ، ولكن لا أعرف هل يمكنهم أن يوافقوا على الإجازة في ظل هذه الظروف ؟!

ـ الجو هنا مشمس ومعتدل .

لاحظ وليام حركة غير طبيعية تجري على ظهر السفينة ، وفوجئ بانطلاق صاروخين ؛ أصاب أحدهما مؤخرة المروحية التي فيها وليام وشيرين، ولكن قائد المروحية استطاع أن يقترب بها من سطح البحر ، وقفز منها وليام وشيرين وقائد المروحية ، وأخذوا يسبحون في البحر ، وراحوا يراقبون اشتعال

النيران فيها ثم انفجارها ، بينما ابتعدت المروحية الثانية خوفاً من إطلاق صواريخ جديدة عليهم .

ـ هل توجد أسماك قرش مفترسة في هذا البحر ؟ سألت شيرين .

ـ نعم .. توجد في البحر الأبيض المتوسط أسماك قرش ، ولكن اطمئني عزيزتي فهي ليست متوحشة .

ـ أرجو أن تأتي المساعدة سريعاً ولا تتأخر .

ـ لقد أخبروني أنهم قريبون منا .

كانت أمواج البحر الهائج تتلاطم بقوة وتتلاعب بأجسادهم وتقذفها إلى الأعلى ثم تهبط بها على سطح المياه .. ووصلوا أخيراً إلى شاطئ الجزيرة وهم في غاية التعب والإرهاق ، وسرعان ما ألقوا بأجسادهم المرهقة على رمال الشاطئ وراحوا في إغفاءة نوم يسيرة .. في أثنائها عاشت شيرين أحداث حلم جميل يتعلق بقضائها شهر عسل زواجها على شواطئ هذه الجزيرة .. أفاق الجميع على أصوات المروحيات المنطلقة من بوارج الأسطول الأمريكي ، وهي تجوب الشواطئ بحثاً عنهم ، وسرعان ما هبطت مروحيتان بالقرب منهم ، ونزل من إحداهما ضابط :

ـ أنا الرائد كولن من قيادة العمليات في الأسطول الخامس .. أهنئكم على النجاة من المروحية .

ـ شكراً لك .. حسناً ماذا تم بخصوص السفينة ؟

ـ اطمئن .. إنها الآن تحت السيطرة ، وقد تم القبض على من فيها وهم أحياء ، وهم الآن يُستجوبون من قبل المحققين .

ـ وهل وجدتم القنبلة ؟

ـ نعم .. وجدناها ، وهي بانتظاركما لاستكمال إجراءات الاستلام والتحقيق .. هل أنتما جاهزان ؟

ـ نعم .. هيا .

صعدوا جميعاً على المروحية ، بينما كانت عينا شيرين ترقبان شواطئ الجزيرة ، وهي تتذكر حلمها القريب .

كان النهار مشمساً ، وكانت أشعة الشمس الذهبية تنعكس على سطح مياه البحر الأبيض المتوسط ، ولمحا من بعيد سفناً ضخمة ، ظنَّا لأول وهلة أنها سفن الأسطول الخامس الأمريكي ، ولكن حين بدأ وليام ينظر بالمنظار المقرِّب رأى أمراً مذهلاً ، فصاح : يا إلهي ما هذا ؟ إنه الأسطول الروسي متجهاً إلى طرطوس .

ـ هل تظن أن المواجهة ستقع بين الجيوش الغربية والجيش الروسي ؟ سألت شيرين .

ـ لا يمكن أن يحدث ذلك .

حين هبطت مروحيتهما فوق حاملة الطائرات الأمريكية كانت تنتظرهما الأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية عن السياسيين الأمريكان والروس ، والتي تتعلق بالإعلان عن تنفيذ اتفاقية (كيري ـ لافروف) ، والتي تنص على تقاسم النفوذ والوصاية على الشرق الأوسط بين الولايات المتحدة وروسيا ، وتقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة ، وإعادة رسم خرائط الدول .. لم يكن ذلك مفاجئاً لمعظم المحللين ، ولكن المفاجأة الكبرى كانت كما قال وليام :

ـ تركيا هي المفاجأة .. انظري يا شيرين .

ـ نعم .. لقد اقتطع جزء كبير من جنوب وشرق تركيا وضُمَّ إلى الدولة الكردية ، وتم اقتطاع القسم الأوربي وما يقابله وضُمَّ إلى روسيا .

ـ يا إلهي ..!! اسطنبول كلها ستصبح تحت السيطرة الروسية !!

ـ إن هذه هي المكافأة التي كانت تنتظرها روسيا من الغرب .

ـ هناك حقيقة تاريخية تقول إن اتفاقية سايكس بيكو كان من ضمن بنودها أن تُضمَّ اسطنبول إلى روسيا القيصرية .

ـ نعم .. ولكن الثورة الشيوعية في روسيا قامت سنة ١٩١٧ م وفضحت هذا الاتفاق .

ـ إن هذا يحقق حلماً كبيراً للكنيسة الأرثوذكسية بعودة أيا صوفيا إليهم حلم كبير لم يغب عنهم في يوم من الأيام .

ـ ولكن أين العرب ؟!! من الذي مثَّل العربَ في هذه الاتفاقية ؟ سألت شيرين .

ـ العرب ... العرب خارج التاريخ ... العرب أموات .. والتاريخ يكتبه الأحياء فقط ...